

إيمان أوخادوف

يد الحديد

رواية

ترجمة د. حسن البياضي

تحميل: مناسير الأزيكية

arab.co

www.librai

www.alkottob.com



www.alkottob.com

www.alkottob.com

تجارب



سور الزكية

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com



زيت الحديد



www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

إيقان أوخانوف

زبد الحديد

ترجمة

د . حسن البيهقي

دار المأمون للنشر والتوزيع

بغداد - ١٩٨٩

OKANNHA
NABAH YXQHOB

زبد الحديد
ايقان اوخانووف

دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
حقوق الطبع والنشر محفوظة
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
توجه المراسلات الى :
دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد - الجمهورية العراقية
ص . ب : ٨٠١٨
تلكس : ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة - بغداد

www.alkottob.com

مقدمة المترجم

رُبُّدُ الحديد ! وهل للحديد من رُبْد ؟ أجل ، انه ذلك الحَبْثُ الذي ينفيه كير الحداد ، تلك النفاية المتأكسدة التي سرعان ما تزيجها كفّ القين عن قطعة المعدن المتوهجة حتى درجة الحرارة البيضاء . بعد أن تنزل عليه ضربات مطرقة القوية ، تزيج هذا الزبد فيذهب (كما في الآية القرآنية الكريمة / الرعد ١٧) جفاء ليمكث ، بعدئذ ، في الأرض ما ينفع الناس ويغنيهم .
وهل الحديد -تَبّاً لتجاره ! -سوى مصدر من مصادر ذلك النفع والعطاء ؟ !

وبطل روايتنا هذه ، المقاتل المدفعي أوستين ديدوشيف هو واحد من الرموز الفذة لهذا الحديد الحديد ، على الرغم مما شابته - بعض حين - من تلك النفايات «الزبدية» التي صارع وكابد كثيراً ، حتى أوشك أن يدفع حياته ثمناً ، في سبيل ازالته عن كيانه ، لينذهب هباء جفاء ، وليمكث هو ، أوستين الحديد «عنصراً» نافعا حتى بعد عودته من الجبهة مصاباً ، معاقاً ، فاقداً نعمة السمع والنطق اثر انفجار هائل لم يفقده الحيوية ولا الاحساس بغلبة الحياة الخيرة المجزية . ذلك لانه انسان يؤمن بضرورة وشرعية العلاقة المحترمة الصحيحة تجاه نفسه وتجاه حبه الحياة

والاطفال والعمل والناس . ولأنه قوي لايهاب المستقبل ، تراه
سرعان ما يغدو - رغم عوقه - شخصاً مهماً ، لا غنى عنه في ورشة
الخدادة ، وفي حياة قريته ومزرعتها التعاونية عامة ، فقد كلن لها
ولنفسها الحداد والحصاد والبناء في آن معاً ، وحتى الغواص
المنقذ حين تدعو الداعيات .

تجري احداث الرواية في احدى القرى السوفيتية ، اثناء
الحرب العالمية الثانية . وقد كتبت بعد مضي اربعين عاماً على
انتهاء الحرب التي عاش كاتب الرواية سني حياته الخمس الاولى
في اتونها المستعر .

ابطال الرواية وشخصاتها جميعاً هم ابناء القرية وسكانها -
من بقي فيها ، او فرح اليها - من النساء والشيوخ والعجائز
والصبيان والصبايا والاطفال ، ومن عاد اليها من جبهات القتال
جريحاً او معوقاً . كان الجميع يعملون - كل حسب طاقته -
مكتائفين من اجل ان تجري الحياة في قريتهم الحبيبة التي هي فلذة
من كبد وطنهم الكبير .

ويتميز في الرواية - فضلاً عن بطلها الرئيسي اوستين -
شخص وابطال اخرون ، من امثال الحداد العجوز بانكرات ، ذلك
الشيخ المحنك الذي ينضح فطنة وحكمة ، والعامل المجد الدؤوب
الذي تتمثل فيه طيبة الشعب وتضحيته .

ومن الشخصيات الحية الفعالة ايضاً مدير المزرعة التعاونية
فاسينين ، الذي تميز بعقله المدبر وبقوة إرادته وبمساهمته في
العمل مع الآخرين ، بغض النظر عن عوقه .

وحتى بريديخين ، زير النساء والرجل المحظوظ في كل شيء ،
ذلك المكار الذي يستدرجك ويتسلل الى نفسك «بلا صابون» ، حتى
بريديخين الذي يبدو - اول وهلة - شخصية سلبية خاوية ، هو
انسان نافع ايضا : يعمل ويطيع ، بل ويتقبل «بلا زعل» التانيب
والتقريع .

اما العنصر النسائي في الرواية فابرز معثليه فروسيا : الرمز
الاسمي للزوجة الوفية والام الحنون والمرأة العاملة المجدة
والانسان الطيبة القلب المتعاطفة ، لامع ذوي زوجها والناس
الاخرين فحسب ، بل ومع بقدراتها الحبيبات ايضا .

ومن الشخوص النسائية الطريفة الأرملة الشابة نيورا ،
سائقة الجرارة ، تلك المرأة النشيطة التي حرمتها الحرب - مع من
حرمت - وهي في عنقوان انوثتها ، من بعلمها فبقيت هكذا بلا رجل
يشاركها فراشها الناعم الوثير .

واخرون واخريات لا اريد ان اكشفهم جميعا قبل ان يدركهم
القارئ ويعايشهم بنفسه .

ينتمي هذا العمل الابداعي ذو المنحى الدرامي الى تيار في
الاتجاه الواقعي يعتمد على معطيات التحليل النفسي ، ويتناول
الانسان الحي الضمير الذي لا يستطيع العيش متواريا خلف ستار
من الكذب والجهتان والرياء .

ومع ان الاثر الفني هذا يرجع في وقائعه الى سني الحرب العالمية
الثانية ويتحدث عن مصير واحد من مقاتليها ، غير انه يدرج
ايضا - من حيث الجوهر - في سجل الاستكشافات الفنية الراهنة .

بتناوله قوانين الضمير الصارمة ، سواء في زماننا هذا او في اي زمان اخر .

ومؤلف هذا السفر الروائي . إيفان أوخانوف ، هو واحد من كتاب القصة السوفيت الواقعيين المنتمين الى الجيل الاول لما بعد الحرب ، الذين يعتمدون التحليل النفسي في اعمالهم الروائية وينطلقون في كتاباتهم من فهم جديد للبطل ، حيث ينظرون الى الاحداث من وجهة نظر القضايا الاخلاقية لوقتنا الراهن ويغوصون حتى الاغوار في تحليلهم الواقعي . وفي سعيهم نحو الكشف عن طبيعة الاشياء ، ونحو الادراك الفلسفي للواقع ، غير معنيين - الا قليلاً - بالجانب العسكري المحض للاحداث .

ولد إيفان أوخانوف سنة ١٩٤٠ في احدى قرى مقاطعة غوركي ، وانهى تحصيله الجامعي في كلية التربية بمدينة اورينبورغ . وقد أعلن الكاتب جدياً عن نفسه في قصته الطويلة «لا تموتني يا أمي» . ومن اثاره القصصية الضريبة التي اثارت الانتباه :

«عزفت جوقة الآلات النحاسية» ، «نور الذاكرة» ، «زوبعة ثلجية في المدينة» . وهو كاتب غزير الانتاج جيد . صدرت له ، حتى عام ١٩٨٦ ، المجاميع القصصية والاعمال الروائية الاتية : «سماء الطفولة» - ١٩٧١ ، «غدا سيكون كل شيء مغايراً» - ١٩٧٢ ، «في يوم خريفي مشرق» - ١٩٧٥ ، «نعيش مرة واحدة» - ١٩٧٨ ، «معاناة ام» - ١٩٨٣ ، «زبد الحديد» - ١٩٨٥ .

وقد اعتمدت في ترجمتي «زبد الحديد» الى العربية ، على الاصل الروسي المنشور في «مجلة الرواية» السوفيتية (العدد ٢٣ سنة

١٩٨٦) . تحت عنوان (OKALUHA = اوكالينا ، اي الزيد .
الرغوة ، خبث المعادن) .

ولن اكون بجانب الحقيقة اذا ما قلت ان رحلتي مع «زيد
المديد» لم تكن نزهة ترفيحية سهلة ، بل كانت - في واقع الحال -
مسيرة شاقة استدعت الصبر الطويل والنفس المديد ، في بعض
محطاتها ذات المطبات التي ترص وتكدم ، فالحوار في الرواية
يتسحون - حد الإغراق - بالألفاظ والتعابير الريفية الروسية
المنطرلة في عاميتها التي تغفو المعاجم والقواميس اللغوية سادرة
من موضح دالاتها ، وبالامتثال والحكم والاقوال المثورة التي
تسجل على السبحة العديد من شخصياتها : اضافة الى النكات
والكلمات المغلفة المغلفة في مقاصدها احيانا ، وحتى استرسالات
المؤلف نفسه واستدراكاته تندمج ، هي الاخرى ، في كثير من
سوانحها ، مع اللهجة القروية الدارجة التي هي لغة البسطاء من
الريف ، في حديثهم اليومي وفي تعاملهم مع الحياة واحداثها .

كانت معالجاتي أسلوب الحوار - بعد فك العضلات طبعاً -
جعلته بلغة عربية سهلة بسيطة ، تسمو على اللهجة العامية
سواءً شادنا مؤكداً من عريقتنا الوسطى الفصيحة ، وسيجد
المتقن في النص العربي بعض التعابير المسجوعة ، وحتى
المطلومة ، التي جعلت في ان تكون قريبة من الاصل الروسي . لكي
تتأكد ما امكن من على أسلوب هذا العمل الابداعي واظهره

والذي نجح المؤلف فيها في استخدام ادواته التعبيرية المنسقة

تنسيقاً موافقاً مع أجواء القرية ومساحاتها التي يتحرك فوق
أديمها أبطال روايته ، نجاحه في المشاركة الوجدانية - سلباً أو
إيجاباً - بين الأحداث الجارية والظروف العامة والحالات
النفسية للبطل والشخص الأخرى ، من جهة ، وبين مظاهر
الطبيعة وظواهرها المختلفة من جهة أخرى . هذا إضافة إلى تمكنه
من اللجوء ، عند الضرورات ، إلى الاستطراد والتداعي ورسم
الصور الخلفية والمونولوج (المنجاة ، الحوار الداخلي) وكل ما
يرتبط بمن قريب أو بعيد - بأسلوب التحليل النفسي من سمات
وادوات ...

إن زبد الحديد ، اثر ابداعى رائع ، يستهويك ويجعلك ترحل
مع كاتبه حتى آخر المطاف الذي يتطور في ذروته الموضوع تطوراً
عنيفاً ليكتمل ، فيما بعد ، ذلك الصراع الأخلاقي المحتدم في ذات
البطل بين المروق وحضور الوجدان ، بين الحق الأبى في العيش
وفقاً لإرادة الضمير والترجيح المزري لمعيشة بهيمية تخمد فيها
همسات الضمير الحي وتخرق نوااميسه .
ولقد حسم هذا الصراع نهائياً لصالح الجانب الإيجابي الخير
في ذات البطل ، لصالح الحياة الحرة الكريمة نفسها .

د . حسن القبياتي

بغداد ١٩٨٨

في اوائل شهر اذار ، في يوم عاصف ، دافئ رطب من ايام عام ١٩٤٤ ، عاد من ساحة القتال اوستين ديروشييف . وصل من محطة القطار الى قريته الام كليوجوفكا على عربة نقل وقود عابرة يجرها فرسان . نزل من العربة عند السياج الريفي ثم راح يخطو نحو بيوت القرية ، متعثراً فوق الطريق العزق الرخو ، بفعل ذوبان الثلوج وسيحانها .

ومن بعيد لمحته ، بمعطفه العسكري ، نساء القرية وصبيانها ، فأخذ الجميع يتطلعون بوجل الى لقائه .

سار اوستين في وسط الشارع بقامته المعتدلة المديدة ، مبتسماً للناس ابتسامات باهتة ، كما لو انه قد اقترف ذنباً ما . وسرعان ما تجمع حوله حشد من الناس غير كثيف . كانت النسوة يبتسمن ، يبكين ... ثم يهجن يتسابقن ، وهن يتمخطن في مناديلهن ، الى استيضاحه عن ذنوبهن ... بعدئذ اندفعت نحوه من جانب وتعلقت بكنتفيه ، في حال من الغشيان ، امرأة جاسرة الرأس هي زوجته فروسيا ، فأخذ اوستين يربت ، مواسياً ، على مؤخرة كتفها الواسعتين الهزيلتين . وراحت فروسيا تنسج من فرج وهي تحك ، بمعاناة ، خدها الناعم بذقن زوجها

في الشعر الخشن القصير ، الذي يشبه الصنفرة
على مهلكن ، أيتها العقائق ! .. أترك الرجل يستعيد أنفاسه
افسحن له المجال لينطق كلمة ' - أنا من أوستين رجل في مقتبل العمر
واسع عظمي الوجنتين ، ذو نظرة صارمة . كان هذا ستيفان قاسينين .
في الصيف الذي سبق الصيف الماضي حملونا معا على عربة نقل
واحدة ، الى مقر لجنة المنطقة العسكرية . لقد تخرجنا في مدرسة
الدفعية معا . . لكن يبدو أن ستيفان قد سرح . لسبب ما ، من الخدمة
العسكرية قبل . ها اذه قد فقد يده اليسرى . - فكر أوستين بحزن
عندما رأى كم السترة الاجوف المحشورة تحت النطاق
ضغط قاسينين بشدة أصابع أوستين وحياة . قائلاً بصوت خافت
مرحماً دافئ .

مرحباً ، أوستين ' .. انك تبدو على مايرام ، سليماً معافاً . سوى ان
انك قد رُفِعَ ترقيعاً غير جميل . لكن لا بأس . هذه أمور تافهة ، المهم هو
انك حي ثرؤق !

أوستينوشكا ' وزوجي بافل . ألم تصاده في مكان ما ؟ - جرته
من كم معطفه امرأة تحمل على كاهلها طفلاً

اه . ما أعظم سعادتك يا فروسينكا ! - بين البكاء والضحك حتى
الدموع . تكلمت امرأة أخرى . حادثة نفسها ما بين أوستين
وفروسيا .

هسر . اهدئي . كفافن صحيحاً . - ألوح قاسينين بيده امرأة

- الصنفرة . السناج (الصنفاة) .

بقول (أول) (الصنفاة) - المرحم -

فتنحى الحشد مفسحاً امام اوستين وحوله ، كأنه يهيبه حلقه اوسع
لأجل الرقص .. لا يتركز مجاًلاً لقول كلمة ما ... وكيف بعد
يا اوستين ، هل جئت في اجازة أم بالمرّة ؟

نظر اوستين بارتباك الى الجميع ووقف صامتاً كالحجر ، هكذا اذن
حتى النطق ضيعه من شدة القرح ، - ريت فاسينين ، مع عتاب رقيق ،
على كتف اوستين .. ولكن لا بأس ... سنلتقي مساء ، ان لم تكن
متعباً ... سنجلس نثرثر بعض الوقت .

- نعم ، نعم . حقاً ، ايتها النساء ، تعالين الينا في المساء . واثت ايضاً ،
ياستييان يغوريتش . سوف نتناول العشاء معا . ما اعظمها من فرحة ،
ياإلهي ! - ومن جديد التصقت قروسيا بزوجها وهزته من منكبيه : -
هيا تكلم ، حدث الناس يا اوستينوشكا !

حدّق اوستين في عيني زوجته بثقة يشوبها الحزن ، مجهداً نفسه في
صمت .

فجأة انفرج فمه قليلاً ، متعوجاً ، مثلاً وانزلقت منه اصوات مبهمه
يضاًغط بعضها بعضاً ، كما يحدث عند القياء :
- غي .. إيغي .. أوئي

سكت الناس جميعهم دفعة واحدة وراحوا يتفرسون في وجه
اوستين ، ذاهلين مرتبكين ...

- إيئي .. غوئي .. أوئي ... - اخذ اوستين يعتصر من حنجرتة حروفاً
قاسية وحشيشة ثم بدأ يحرك يديه بحدة ، كأنه يسعى جاهداً الى ان
يشرح لهم مقصده ، راسماً بأنامله في الهواء مختلف الصور
والاشكال .

ياإلهي ، انه مصاب بلوثة في عقله ! - صرخت مرعوبة واحدة من النسوة .

لقد شوّهوا الرجل ، ويل لهم من سفلة اوغاد .
تبا لهؤلاء الفاشست المتوحشين ! ... - شرعت تولول ، بصوت خافت ، امرأة اخرى .

جفلت فروسيا كما لو انها جلدت بسوط ونظرت الى الناس بوجه مستقصر مذعور ، غير مصدقة ما يقولون .

كيف يكون هذا .. كفاكن ، ايها النسوة ، لماذا تتقوهن بمثل هذا الكلام ؟ تبا لالسنكن ! . اخذت تتكلم بارتباك وذهول . ثم راحت وقد لاح التأثر والقلق على وجهها الذي تضمر في لمح البصر ، راحت تستدير ببطء نحو زوجها وكأنها متهية وجلة . فمد اوستين يده نحو صدرها وشرع يزدر بلوزتها العتيقة التي انفرجت بفعل الرياح المشبعة بالرطوبة .

- غي .. اوتي ، - بدأ يعتصر من جديد وقد نديت مقلتاه الغامقتان وتآلق فيهما شيء ما .

حسنا ، ولكن هيا ... قل لهم ، هدثهم استينوشكا ، اخذت فروسيا ، وهي تصد دموعها الطافرة من عينيها ، تناشده بصوت مرتعش غريب ، لا يمت اليها بصله .

ها هو يقول لك : لماذا عريت صدرك ؟ لقد هات اوان الصيف ، - صاحبت امرأة تحمل على متنها طفلاً .

انه يخفق عليك ، فهيا شدي اضرار بلوزتك قبل ان تصابي بالزكام ! ...

وليست به أية لومة . واضح من النظر : بعينه ينطق . بعينه يسمع .
اي نعم . انهم يفهم كل شيء لكنه لا يستطيع أن يتكلم ...

اخذت النسوة ، متكاتفات متودعات ، يواسين قروسيا ويصبرنها .
وقد حذر اوستين من تعابير وجوه الحاضرين انهم فهموا كل شيء ، وانهم
يأسفون على حاله .

- وثاءة ؟ ... انت مصاب بوثاءة ، أليس كذلك ؟ - بدأ فاسيتين يصرخ
بصوت عال وهو منشّد الى اذن اوستين .

لم يرد عليه اوستين بأيما شكل ، بل جسّ الكمّ الخاوي من سترة
فاسيتين وأوماً برأسه - مستفهما - نحو الغرب ، نحو تلك الجهة التي
قدم منها قبل قليل الى القرية .

أي نعم ، هناك . وأنا ايضاً مزقوني هناك - اجاب فاسيتين بصوت
كأب وايماءة رأس مكفهرة ، ثم اضاف قائلاً بخفة ومرح وهو يوجه
حديثه الى اوستين والحاضرين جميعاً : - لا بأس . ان الزاس واليدين
والرجلين كلها في عهدتك . اما اللسان ، ولكن ما اللسان ؟ انك لن
تستطيع ان تجدل به ولو خفّاً !

هو كذلك ، اللسان ؟ .. انه العدو الاول للانسان : كلما قل كلامك قلت
اثامك .

هكذا بالضبط . من فينا لم يوقعه لسانه في بلية ؟
تطايرت مشاعر العطف والمواساة من كل جانب وصوب .
هل تسمع ، يا اوستين ماذا يقول الناس ؟ أجل ، هكذا ، فلا تأسف
على شيء . سوف نعيش ونعمل . ليس باللسان ، بل باليدين يعمل

الانسان . ما اسهل الاقوال ، أما الافعال ١٩.. وأما يدك فنحن نعرفها جيداً .. استرح بعض الوقت . وبعدما تتعافى تماماً تعال الى ادارة المزرعة التعاونية الاشتراكية . كان فاسينين يوجه كلامه الى فروسيا والحشد المتجمع اكثر منه الى اوستين . في حين راح يصوب نظره تشجيعية الى عيني الجندي .

غادر فاسينين المكان فوراً . أما النسوة فقد واصلن الحديث ، شارحات لاوستين بأصابعهن أن ستيبان فاسينين . الذي كان فيما مضى رئيساً لفرقة العمال في المزرعة التعاونية الاشتراكية ، هو الآن يشغل منصب المدير فيها ... وقبل ان يتفرقن ، منصرفات الى بيوتهن ، راحت كل واحدة منهن تشجع بصوت عال فروسيا مرة اخرى ، منافسات ومقاطعات بعضهن بعضاً : منهن من فعلت ذلك بدافع الحنان والعطف الصادقين ، ومنهن بقصد الوقوع ضمن المدعوات الى مائدة المساء . اصغت فروسيا الى الجميع ، مسحت دموعها وهي تزداد ثقة بسعادتها الانثوية كزوجة وام . أجل ، لقد حالفها الحظ فعلاً ، ولا ينبغي لها الان أن تغتم ، بل عليها ان تشكر القدر : فزوجها وان كان مكروماً ، مصاباً بعاهة ، لكن الاصابة على درجة من البساطة هي اقرب الى السلامة : اذ انها - كما يبدو - لم تلحق بصحته ضرراً جسيماً . ثم انها قد عزلته عن الحرب الى الابد .. قلن لها ، فسلمت راضية مرضية ، إن الحياة ستغدو لها سهلة مع زوج أصم أبكم : إن الصم البكم لينو العريكة ، وديعون ، هادئون ، مطيعون ... لن يبلغ السمع منهم ابداً اي هراء أو سباب أو كلام فاحش بذيء ... ثم نقلن اليها ، بلهجة ناصحة وعظيمة ، أن هناك ، في المزرعة التعاونية الثالثة جندياً عاد من

التجبهة الى زوجته وقد شوي داخل دبابته شيئاً فظيعاً : عاد فاقداً
سباقيه كليهما . اما جوفه فسلم تماماً ، يجرع القودكا طوال النهار ،
يبكي . يتفوه بكلمات بذينة ، يلعن الكون قاطبة ، يدب الى المشاجرة
.. بيباً .. اما هي ، زوجته المخلصة الحميمة ، فعليها ان تصير وتصابر
على معاشرته ، ان تتكيف معه ، تأسى له ، تشفق عليه ، هو الكسيح
المقعد الى الابد . ياله من عقاب ، ياله من مصيبة أبدية فادحة ! ... اما
أوستين ، فماذا به ؟ انه واقف على قدميه ، مالك كلتا يديه .

مساءً ، في المنزل القروي الذي ازدحم بالضيوف ، في دار آل
ديدوشيف ، راحت تصر لوحات الأرضية الخشبية ، ترتج الاواني فوق
الماندة : تنطلق اصوات النسوة بأهازيج الجاستوشكا الشعبية ،
ينطلقن بأقدامهن منغمرات في رقصهن الشعبي وكانهن في نوبة من
نوبات الصرع ... احتسى أوستين قليلاً من القودكا ، بدأ يتشجع ،
حدث بيديه وشكر بمقلتيه جميع الذب فهموه . كان ولداه الصغيران
فاسيك وبافليك يجلسان بقربه ، يظلمان من حين لآخر الى والدهما
مضروبين من بهيج وبوجل ، دون ان يعرفا كيف يتفاهمان معه . في
الركن الامامي ، الى اليسار من أوستين ، جلس شيخ ضئيل الجسم ، في
خلفه صارم المظهر . كان يرتشف بجرعات صغيرة وفي معاناة ظاهرة ،
بالآن يتجرع دواء ، يرتشف القودكا من كأس . سبت له مرة واحدة في
ليلة السهرة ، ونحك سامل حزين لحبته الخفيفة من حين لآخر . كان
يظلم متجهماً الى أوستين . وبرجاء من الضيوف ، رفع النخب مرتين
محضاً ، لكنه لم يتقن من ان يفوه بشيء ذي جدوى ، سوى انه راح
يتشكى ويتظلم طويلاً .

نحن ، آل ديدوشيف ، هذا هو ديدننا ، هذه هي حالنا منذ غابر الزمان . كل الحصى ينهال على رؤوسنا . هكذا هو نجمنا وطالعنا . إليكم ، مثلاً ، ولدي هذا ... رجل سالماً ، لكنه عاد بلا صوت . نجلس وإياه متلاصقين جنباً إلى جنب ، غير أن الحديث صامت بيننا . قال أين المفر ؟ انها مصيبة ... لكنها لا تجري في غابة ، بل تقع على الناس . هي ها هنا ، لدى كل واحد منا ، جاثمة على كاهله .

أوما أوستين إلى والده ، وهو لا يسمع بالطبع كلامه الشجي الأسى ، أوما إليه بابتسامة نشيطة ، كما لو أنه كان يرد على حديثه مؤكداً ، في حين أكتأب العجوز من ذلك اشد الأكتئاب وتقوس ظهره أكثر من ذي قبل . نظر في كدر خافت من تحت حاجبيه المتهدلين الاشقرين الضاربين إلى الحمرة . نظر إلى النسوة اللواتي ملأن المكان صخباً وضجيجاً وكأنه يريد أن يقطع كلامهن ، أن يقنعهن بحججه ... أما النسوة فقد رهن يعلن الشيخ العجوز في مرح مدو تتخلله الدموع ، وكأنهن كن يلمنه في سرهن :

«لقد تكررت من بطريا دانيليتش . وهل لمثلك أن يحزن ؟ هاك انظر إلى ولدك كيف عاد من الجبهة مورد الوجنتين ! .. وإذا شئت فاذهب وطف على بيوت الآخرين : من ياترى حاله الحظ هكذا ؟»

اقتربت من العجوز الارملة الشابة نيورا كوريوشينا ، جلست إلى جوارها ثم قالت له وهي تروح بمنديلها :

- حسبك تلكؤأ يا دانيليتش ! هيا بنا نغني ، من أجلك ومن أجل أوستين أه ، كم كان يحب الغناء !

- لست راغياً في الغناء لامرأ . يانيورا ، ولا في الشراب .. لوَح العجوز

بيده علامة الرفض .

- وأنا ، لأجل اي شيء تراني أغني ، لأجل ان لا ابكي . وحين انتهى من الغناء ابدأ بعده بالعويل ! - هتفت نيورا في مرح مفاجيء ثم شرعت تدندن شيئاً ما بغير كلمات . وفي الحقيقة بدت وكأنها تولول .
غنوا ، رقصوا ، بكوا ... ثم تفرقوا متصرفين بصمت وهدوء الى منازلهم .

في الصباح استيقظ أوستين من نومه حين كان المنزل خاليا من أيما
إنسان فروسيا توجهت ، مع انبلاج النور ، الى زريبة البقر ، الولدان
ذهبوا الى المدرسة . طرح معطفه العسكري على كتفيه وخرج الى سقيفة
الباب ، مضيقا عييه في مواجهة الشمس ثم راح ينظر على مهل الى
شارع القرية نظرة العارف المبتهج . بعيدا ، على مقربة من البئر ، كان
شاة حديث صاحب يدور - طبقا لحركات اليدين - بين امرأتين . وتب
ديك فوق سياج من اغصان مجدولة . رف بفتاحيه وبدأ يصيح . ثم
يسمعه أوستين ، واستدار استدارة حادة مفاجئة لكي لا يرى الذي
الذي كان يصيح بلا صوت - ضمت الفرحة الهادئة في صدره
استولى عليه الغزع فجأة - قد يظهر الآن من خلف ناصية الدرب ربح
كريم . يسأله - هو العاقد النطق - عن امر ما يغدو امامه . وهو يسير
له مجيبا على سؤاله . يغدو في هيئته ضئيلا . منيرا المضحك . ساعتا
الاسي ... مثل هذا الذي تماما

سار أوستين ميتعدا ببطء عن سقيفة الباب ، خرج الى الباحة
الصغيرة الخسجة باغصان مجدولة . وينظرة كنيية متحرية راح يقبس
الباحة في خطي مندة غير مقصودة . ثم اخذ . وكأنه لا ينق بنفسه
ينحسس بقميه ، مائبا متقصيا . تارة الجرين المتداعي واخره

البرميل الخاوي وثلاثة عدة النجارة القديمة وادوات البستنة التي كانت كلها معلقة على جدران مخزن الغلال ...

عرف جميع هذه الادوات واللوازم المنزلية التي كانت ، في غالبيتها من صنع يديه هو ، عرفها ، بيد انها بدت في الوقت نفسه وكأنها لم تعترف به : اذ لم تستجب للمساته بأيما صوت . الملاقط والكسارات لم تبعث صليلها المألوف ، الأعنة ذات السيور الجلدية غير المدبوغة لم تبدأ صريرها في يديه ... التقط أوستين في ركن الباحة دلواً مبعجاً في حافته العليا ، تناول من فوق الرف مدقاً وشرع يقوّم على جذل^١ شجرة اناء الصفيح اياه . اخذ يطرق اول الامر بدقة وسداد ثم اذا به يلوح فجأة بغضب وتهور ، يضرب على غير هدى وكأنه يرغب في ان ينتشل ، ان يخرج بالدق ، عنوة وعلى كل حال ، الصوت المطلوب من قطعة الحديد ... لكن لم يكن ثمة من صوت . رمى أوستين ، وهو يتميز غيظاً ويلهث متتهداً ، كلاً من المطرقة والدلو الذي دمر كل التدمير ثم وقف ، وقد اسبل رأسه كالثور . وقف طويلاً وسط الباحة متأملاً في زهول .. بعدها خرج ثانية الى سقيفة المدخل وعابن الشارع . كان الشارع اخرس صامتاً مثل بقية الاشياء الاخرى المحيطة به . شعر أوستين برغبة في الذهاب الى الناس ، الى فروسيا ... هبط منحدراً درجات السلم وداح يضرب خطاه في الطريق . فوق عمود الكهرباء المغرور مقابل مبنى ادارة المزرعة التعاونية سكنت واجمة فوهة مكبر الصوت السوداء . وقد اكد صمتها ... كما خمن أوستين - عصفور كان يحط فوقها غافياً .

تحتي البال^١

١- الجدل اصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الغرع .

المحفوظة جميع الشرائع والتعليقات الواردة في الحواشي هي للمترجم

من عطفة زقاق مجاور ، خرجت مستديرة سيارة بيكاب عتيقة
واندفعت في الشارع ، ملاحقة الجندي وهي تزيق بجوفها المتصدع .
وقد داهمته تقريباً وهي ترسل دونما انقطاع اشاراتها الصوتية ، بل
وكادت تلقي به ارضاً . ثم عرجت جانبا ، زاعقة بفراملها ، منزلقة الى
داخل اخدود هناك . تنحى اوستين واندفع جافلاً ممتلكناً نحو حافة
الطريق . تعثر وهوى ساقطاً على الرصيف .

أي ، انت ، مابك ؟ سكران ، ألا تسمع صوت الزمّور ١٩ - شرع
يصرخ ، غاضباً ، السائق الشاب المتين البنية ، الذي سرعان ما ميز فيه
اوستين ابن قريته فيودور بريديخين .

أصم ، هو أصم ... مصاب بعاهة ١ - اخذت تصيح ، ملوحة
بأيديها ، نساء كنّ واقفات عند البئر .

وفي غضون ذلك نهض اوستين من على حافة الطريق واقترب نافضاً
قميعة وعلى وجهه سيماء من اقترب ذنباً ، اقترب من السائق الذي بدأت
تتلالا على وجهه بدلاً من سورة الغضب ، ابتسامة ذاهلة مرتبكة ...

اوستين ؟ ... مرحباً ! - شد كل من الرجلين بقوة على يد الاخر - لم
يقتلك الفاشست ، لكنني كدت . بالمقابل ، ان ادھسك . تدبب ضارباً
الارض بقدميك كالاطرش ؟

سكت بريديخين وراح يلامس اوستين بنظرة ما ، اخرى جديدة ،
خالية من البشاشة هذه المرة . ثم التفت بعد ذلك الى السيارة التي كانت
تحدث على جانب الطريق صخباً ذا صريف خافت . وكأن لم يكن راغباً
في أن يتوغل في مصيبة هذا الادمي الذي التقاه هكذا على حين غرة ، كذا
ايضاً أخذ يتكلم على عجل ، بصوت أجش وتشجيع متصنع :

- وليكن ، ان الامر تافه ... المهم هو انك حي ترقق !.. انا ايضا
انظر :- اراه بريديخين راحة يده اليسرى التي اصابها بعض
التشويه .. تصور ، انني بيد واحدة ادير عجلة القيادة ... وبها ايضا
اعانق النساء . واذا كان ثمة ما يمكن العناق به فان ذلك يعني ان كل
شيء لدى الرجل على ما يرام !
بدأ بريديخين يطلق قهقهات عالية ثم اندفع راكضاً نحو السيارة
وعيناه الكستانيتان تتلألآن كما الضياء ..

اراد اوستين ان يعود الى عمله السابق في ورشات التصليح ، الا ان صممه لم يسمح له بذلك . كل السيارات والجرارات والماكينات اصبحت الان خرساء ، غير مسموعة بالنسبة اليه ، تجري بلا صوت . كما في السفينة الصامتة . ولم يكن اوستين يحدد عمل محركاتها او يحكم عليه الا بالرائحة او بالارض المرتجة تحت قدميه . ولم يعد يتمكن ، كما كان سابقا ، من ان يحدد بدقته المألوفة الباعثة على الحسد ، موضع الداء في احشاء المكاثر الحديدية عن طريق سماع اصواتها . فلقد ذاع صيته في كليوجوفا - قبل الحرب - كميكانيكي تعلم الصنعة بنفسه ، بلا معلم . كان يستطيع دائما ان يعجل في تشغيل ابسط الاجهزة والالات الميكانيكية : فتارة يوصل جهاز نقل الحركة بالسيور من جرار الى مزاراة ، وطورا يثبت مروحة يدوية الصنع على آلة تجفيف الحبوب ... لم يبق الان في المزرعة التعاونية من بين المعدات المتحركة جميعها سوى عجلتي جرار وحافلة بيكاب واحدة . اما بقية الاليات فقد سحبت منذ بداية الحرب لغرض الاستفادة منها في الجبهة . كان في مقدور النسوة والصبايا ان يعملن على الجرارات وماكينات الحصاد الصالحة للعمل ، لكن ما ان يحدث عطب او خلل ما حتى تبدأ الدموع الانثوية تسيل مدرارا . وكم كان صالحا ومفيدا للمزرعة التعاونية في

الوقت الحاضر وجود انسان متخصص بالميكانيك مثل اوستين
ديوشيف لو كان عاد اليها من الحرب مثلما غادرها سابقا . سليما
معافى لا معوقاً من الدرجة الاولى . فأنى له الآن ان يفقاهم او يعيش في
وفاق مع المحركات ؟ ثم ان الاتصال فيما بينه وبين الناس هو الاخر من
الصعوبة بمكان : تصرخ فيه بأعلى صوتك ، وان شئت فاسترسل
صارخاً في اذنه ، اما هو فيظل - كعادته - يحدق فيك ويبتسم . كأنك
تحدثه أبداً عن شيء ما سار ولطيف .

حاول فاسينين ان يفرض لأوستين عملاً مناسباً : سائق خيل ، سائق
جرارة ، خفياً ، مراقب عمال في المزرعة التعاونية .. راجع الرجل كل
الاعمال والوظائف الملائمة التي يمكن ان تليق بالأصم الابكم اوستين .
غير ان اي عمل لابد ان يحتاج ، في سبيل انجازه ، الى شخص ان لم يكن
يملك صوتاً ففي الأقل ان يملك سمعاً . ولكن الا يصلح ان يكون ساعي
بريد ؟ ان البنت تاتيانا فاسينينا ، مع انها تحمل البريد وتوزعه
بانتظام ، لكنها صارت في الايام الاخيرة تخاف بعض الخوف ، ولو كان
الامر يقتصر على الرسائل وحدها لهان ، غير ان هناك الطرود والنقود
ايضاً ، ثم ان طريق البريد يمتد عبر غابة كولغانسكي . حيث يمكن ان
يحدث أي شيء لا تحمد عقباه : انها الحرب ، وقد اصبحت الغابة
موحشة مخيفة . زد على ذلك ان البنية رقيقة شفيقة وحساسة عاطفية
الى ابعد حد . عندما تجلب نبأ باستشهاد احد المقاتلين تراها تكابد
وتتالم وتعاني . على حد سواء مع كل ارملة او تاكل جديدة . ومن هنا فان
المصائب والاحزان تدخل بيوت زوجات الجنود وامهاتهم في كليوجوفكا
وأولاً اشد دويًا وهم جيحاً واعظم صرخاً وعويلًا .. خذ البريد في يدك

يا أوستين ، فعسى أن يساعد ذلك على التقليل من النواح والنحيب .
تصيح به ، تتظلم ، تستعطف ... ولكن هل ثمة من فائدة ؟ ساكت ،
ساكن كالقبر !

بيد أن فاسينين ، وهو يعرف جيداً شغف أوستين الجاد بقطع
الحديد ، لم يكن ليرغب في أن يحشره داخل المتاهات النائية للمزرعة
التعاونية التي تعاني من شحة في الأيدي الرجالية العاملة .

سرعان ما عين أوستين طرّاقاً في ورشة الحدادة ، بديلاً للفتى الذي
التحق بالجبهة . كان يعطل الحديد في هذه الورشة العجوز بانكرات
سيميونوفيتش أفونين ، وبعبارة أبسط ، الجد بانكرات - كما كان
الجميع ينادونه . كان رجلاً قصير القامة ، نحيف الجسم ، عريض
المنكبين ، ذا لحية صهباء شقراء بلون قشٍ قدم به العهد . أما فيما
يتعلق بعدد سني عمره فهو محال على التقاعد منذ زمن طويل ، لكن
الحرب أعادته إلى كور الحدادة من جديد . استقبل الحداد العجوز
أوستين استقباله شخصاً يعرفه من زمن بعيد ، ونظر إليه نظرفته إلى
مساعدة أمين يركن إليه .

- اسمع يا بانكرات سيميونيتش ! وضع له بالمطارق ، أره كل شيء .
- راح فاسينين يوصي الحداد بأوستين وقد جاء به إلى ورشة الحدادة .
وما حاجتنا ، أمام السندان ، إلى الحك باللسان ؟ على المطارق
سيجري حديثنا . - نظر بانكرات إلى أوستين بحفاوة ، من قمة راسه
إلى الخمص قدميه ... نظر إليه بعينيه الذابلتين الباهتتين تماماً ، بفعل
النار الموصلة في كور الحدادة ، ثم غمزه مداعباً : - والآن ، ألا
نحرب ؟

ناول اوستين الملطاس^(٣) ، وخطا هو نفسه نحو الفرن المتأجج حرارة . انتشل من الجمر بملقاطه العدة المتوهجة لدرجة الحرارة البيضاء ووضعها فوق السندان ذي القرنين . وبعد ان حول الملقاط الى يده اليسرى ، استل باليمنى ، من الفجوة الكائنة بين ساقه وجزمته ، مطرقة خفيفة ذات مقبض طويل وراح ينقربها عدة العديد الرباعية ، مزيحاً عنها الغشاء الرقيق ذا اللون البني المصفر ، الذي تكون بعد تبريد المعدن المسخن ... صار لون قطعة المعدن المطروق ابيض مشوباً بالصفرة ، مثل لون كتلة من شمس الظهيرة .. نقر بانكرات وهو يمسك القطعة المعدنية بالملقاط ، نقر على حافتها السميكة نقرة خفيفة .

«طاق» ، - دعت المطرقة . «يام !» - طرق الملطاس ، مستجيباً لدعوتها بتثاقل وكلال . «طاق» ، - سددت المطرقة ضربتها . «يام !» - هبط الملطاس على المكان المشار اليه ...

قف ، قف ! - اطلق بانكرات ، وقد توقف قليلاً ، صرخة عالية ثم راح يهدد اوستين بمطرقته مازحاً - ايه ، يالك ! أعجبت فاسترسلت في الطرق ... ولكن هيا ارنى كيف تطرق طرقة اخف ! .. هز اوستين رأسه بلطف ، كما لو انه قد اقتترف ذنباً .

(٣) الملطاس (ملاطيس) : المطرقة الكبيرة .

بشر ربيع عام أربعة وأربعين بخصب وثير . كان أوستين . وهو يحث خطاه مع باكورة كل صباح نحو ورشة الحدادة ، كان يتخطف في كل مكان أمارات الصيف المخصب بمسرة ومسرة : الكثبان الثلجية قامت على مستوى واحد مع السياجات والعنابر . لكنها لم تكن ملتصقة التصاقاً مباشراً بالمباني بل تاركة بعض الفواصل والفجوات : الأشجار كانت تجل في الليالي يندى مثلج بهي : الثغرات الموجودة على جليد الساقية كانت مغمورة حتى آخرها بالماء - بشير فيض كبير . وكثير من الماء يعني كثيراً من العشب ... وقد أخذ الناس ، مستوثقين من سنة خصب جيدة ، يعلفون بسخاء ظاهر قطعان الماشية التي هزلت خلال فصل الشتاء ، نافضين جراحة وبلا تردد مخزونات الدريس والعلف ... في كل مكان . في المزرعة التعاونية وفي بيوت الفلاحين ، وضعت الأبقار نتاجها الجديد من العجول الصغيرة ... وفي الهواء البليل العليل راحت تعوم رائحة اللبن الحليب ، إلى جانب روائح ربيعية أخرى لا يدركونها ، يضطرب لها القلب وتثار فيه الهواجس ...

كانت فروسيا تختفي أياماً بطولها في المزرعة التعاونية ، حيث تضع الأبقار أحياناً مواليدها أثناء الليل ، ولم تكن لتظهر في المنزل إلا مع الصباح . وقد استقبل أوستين ، ذات مرة في منتصف الليل ، عجلًا

صغيراً وضعته بقرتهم الخاصة . دثر العجل البليل ذا الجبهة البيضاء بقطعة من نسيج الجواليق وحمله من السقيفة الى داخل المنزل حيث الموقد الحجري الذي ينبعث منه الدفء .

وقد لاحت ايضاً في بعض الامكنة ، عند السفوح الشمالية ذات المنحدرات الشديدة ، لاحت بلونها الناصع البياض اقراص من الثلج . وفي الصباح كان يطراً على الجوضباب بارد كثيف ، إلا أن الارض كانت تميل الى الدفء . وقد غدت الايام المشمسة اطول من ذي قبل ، وشمخت السماء معلنة عن زرقتها ... كانت الطبيعة تسارع الى معايشة مسرات وشواغل هناءات الربيع ونعمه . وفي أمسية من أماسي شهر ايار بلغت الاسماع تلك الانات المرتقبة المنشودة التي راحت ترسلها الضفادع من الساقية ومن البركة الغزيرة المياه . وكان هذا يعني أنَّ الارض قد تسخت جيداً : لقد أن أوأن البذار .

غدت ورشة الحدادة في هذه الايام مكاناً مزدحماً للغاية بالناس وذا اهمية مرموقة في القرية . تراكمت الاعمال بكميات كبيرة جداً . إلا أن الطقس الربيعي الملبد بالقيوم قد ايقظ في جسد الجد بانكرات جميع اسقامه المزمنة المتأصلة ، فكان أوستين غالباً ما يظل وحيداً امام السندان . لقد استنفذت الآلات والادوات الزراعية التابعة للمزرعة التعاونية قواها ، استهلكت ، بليت تساماً ، وليس هناك ما يمكن بتسليحها او ترميمها به : لم يبق في مستودعات محطة الآلات الميكانيكية قطع غيار ولا أية مخلّعة معدنية . ان التلاميذ ومعهم جميع السكان القاطنين في البيوت الواقعة بعيداً عن الطريق العام نبشوا كثيراً وسحبوا الى ورشة الحدادة ، مزارع عديدة ، جميع القطع الحديدية الصدة

التي عثروا عليها . كما ان قاسيتين نفسه ، وهو يسرح عند محطة
القطار بمفرده في اغلب الاحيان ، كان يطلب بالحاح - كما يفعل
الفجري - شيئاً ما من العاملين في السكك الحديدية ومن مرافقي
القطارات الصارمين الذين ينقلون من الجبهة الى اعماق الاورال ما
تحطم من طائرات ومدافع ودبابات وجرارات قاطرة ... ولم يكن من
السهل ادخال القراضات المعدنية المختلفة ، التي جلبت الى ورشة
الحدادة ، في حيز العمل . لكن الحاجة ام الاختراع . فكما استطاعت
النساء ان يتكيفن لتفصيل الملابس لأولادهن من شتى انواع الخلق ،
كذلك راح الحداد يرقع ما امكن ترقيعه من الحديد الصالح للطرق ،
مجداً ومصلياً اياه في النار والماء . ان شحة المادة المعدنية المطروقة
غالباً ما كانت تدفع اوستين وبانكرات نحو اللجوء الى العمليات المعقدة ،
الى لحام الحدادة . وكانت عملية اللحام تتطلب وجود الفحم الناعم
المنقى «البندق» والرمل النهري الاسود اللون الذي يسمونه الصهور .
لقد وجب على الحداد ان يكون على مستوى عال من المعرفة والقدرة .
لكن كان يترتب عليه قبل كل شيء ان يمتلك طاقة متزنة جلدة وثباتاً
شديداً : كانت الملاطيس تدوي طوال النهار امام الكور ، ورنين الطرق
الخفيف المتواتر ، المنبعث دونما انقطاع ، ينتشر فوق سطوح المنازل
ليثير في نفوس الناس البهجة ويبعث فيها النشاط .. إلا اوستين ، فهو
الانسان الوحيد الذي لم يكن يسمع هذه الاصوات ، على الرغم من انه
هو الذي يصنعها ويبدعها .

انه يعيش الان في صمت مطبق عميق ... كذلك السكون الذي كان
يحسه ايام طفولته الصاعدة ، عندما كان يملأ رتيته وهو يعوم في البركة

بكمية كبيرة من الهواء ثم يغوص بعيداً تحت الماء ويسبح ، مفتوح العينين ، في القعر الصامت الابلكم ذي المياه الضاربة الى الخصرة . وها هو ذا العالم الصاحب المألوف لديه يبدو الان وكأنه قد حجب عنه تماماً بطبقة سميكة من مياه جامدة صامدة ، لاسبيل الى اختراقها او النفاذ منها . غير انه لم يكن اصم ايكمن من يوم ولادته ، هو الان كثيراً ما يعتمد على حافظة السمع عنده . وهي التي تنطق له اليوم صياح الديك ، خوار البقرة ، ضجيج المطر ، صريف الثلج ... وكل ذلك العالم الحي المتحرك الذي كان يتأمله من حوله ، لكن دون ان يسمعه . كان يدرك ويستوعب ما يحيط به بعينيه فحسب ، وبالرائحة ايضاً . فحيثما حل اكتنفه صمت رهيب كسكون القبر ! لم يكن يسمع حتى سعاله . لكن في هذا الصمت كانت تحيي ، بانتباه ودقة ، خواطره وافكاره : الكلمات الخفية غير المنظورة التي لم يكن يسمعها احد سواه . كان احياناً يحرق ، اثناء الحلاقة ، في وجهه باهتمام وعمق وهو واقف او جالس امام المرأة : لم يبد له متغيراً البتة ، لقد لاح له مألوفاً تماماً ، فهو وجهه السابق الذي عرفه قبل نصف عام ، أو قبل خمسة اعوام مضت ، يوم كان سليماً ، غير مصاب بالصمم والبكم . وبدأ يؤمن ، متهيئاً ، بأن هذا الخل الذميم الذي حدث في داخله ، والذي لم يؤثر مطلقاً وبأي حال في مظهره الخارجي ، هو خرق مؤقت مثله مثل أية علة بشرية عابرة . وقد زاد اعتقاده في ذلك ايضاً ان الاصوات كانت تعودده ، تؤوب اليه في احلامه : كان يغني ، يضحك ، يتحدث مع فروسيا والصغيرين ... غير ان الصحو كان يقض الصوت فيحس ، بعد ان يهب مستيقظاً من نومه ، حس من جديد كأنه مغلف ، مختوم عليه بإحكام من جميع الجهات .

راحت فروسيا ، محاولةً التقليل من شأن العطب الذي أصاب زوجها ، راحت تسر الى صويحيباتها ، زميلاتهما في العمل :
مع انه كان في شبابه ، كما تعلمن ، يغني ، يعزف على الاكورديون ،
لكنه لم يكن مهذاراً أطلق اللسان كثيراً . نسمع الى الآخرين وهم يشتررون
كأنهم يجدلون الدانتلا بالكسنتهم ... أما أوستيا ، زوجي ، فهو أكثرما
كان يرى ساكناً يلامع من حين لآخر بنظرات كلها لطف ومودة . وهكذا
استطاع ان يستدرجني ، يستميلني ، يوقعني في شباكه ... بنظرات
عينيه ...

واليوم هي تشفق عليه وتحبه ، هو المصاب بعاهة ، حباً أكثر رقة
وحناناً من ذي قبل : تحبه بامتنان لاهتمامه اللطيف بها ، في الماضي وفي
الحاضر ، ولانه قد اجتل فيها روحها ، دون اي شيء آخر .
كانت فروسيا في شبابه فتاة طويلة نحيفة ، تخطلها خالتها جميع
تنوراتها وفساتينها : اذ كان من النادر ان يلائم جسمها شيء من
الأكبسة النسائية التي ترد الى متجر القرية . وقد عانت ايضاً ، جراء
طول قامتها ، من حالات احراج اخرى : ففي المدرسة كانت تجلس على
المتعد الاخير ، وفي النادي تراها ضمن الصفوف الخلفية ... أما
الحفلات الساهرة وما يتخللها من فعاليات رقص وغناء فانها ، هي
الاعرى ، لم تجلب لها إلا القليل من المسرة : فأى من الشبان كان
يرغبه ان ينزل الى حلبة الرقص بصحبة فتاة أطول منه قامه ؟ .. غير
انها بالنسبة لأوستين كانت مناسبة تماماً ، قلباً وقالباً ... وبعدما
انجبت له ولدين ، الواحد تلو الآخر ، تضاعف احترامه لها . ثم جاءت
الحرب ، كارثة الكوارث على وجه البسيطة كلها ...

لم يستطع أوستين أن يتكيف مع وضعه الجديد إلا بصعوبة وجهد .
لكنه كان - وهو يتطلع بأمل ما إلى الشفاء ، إلى البرء مما أصابه -
يتوجس خيفة من أن عاهة البكم والصمم هي كالداء اللدود الفتاك ،
ستنمو منتشرة في جسمه كله ، تمتصه وتستهلكه برمته ، تطفىء النور
في مقلتيه وتقمع التنفس في رئتيه ... فراح يضاعف ، متعجلاً ، من حبه
فروسيا ، يشفق عليها ، يلاطفها ، يداعبها بنشوة روحية عارمة وكأنه
ينظر إليها نظرة وداعية تلهب حياً وحناناً ... وقد غمره سرور يسمو عن
الوصف حين عرف أنها حامل .

هل تسمع ؟ ... - قالت له هامة ذات مرة وهما ضجيعان يلفهما
فراش الزوجية . - آه ، ولكنك لا تسمع شيئاً .
عثرت فروسيا على راحة يده فوضعتها ، من فوق قميص نومها ، على
بطنها . فهم أوستين ، حذر كل شيء وليس بيده لمسا خفيفاً رقيقاً بطن
فروسيا الذي كان ما يزال مستويا منبسطاً كبطن فتاة عذراء .
منذ زمن بعيد لم تضع النساء عندنا مواليد جدداً ... ساكون انا
الأولى ! .. هل تسمع ؟

وسر كذلك كوزما دانيلوفيتش ، الذي كان لا يفتأ ييكي في سره مصير
ابنه أوستين السيء الحظ ! ولكن الله ، تأمل ! .. ، لم يفس أوستين ،
فعلى الرغم من أنه مصاب بعاهة إلا أنه رجل سليم معافي داخلية . يعني
أن سلالة ديديوشيف مستمرة في العطاء ، صالحة للبقاء .. أجل ، إن
الاحفاد سيترزعون ، ولسوف يصونون شرف العائلة . فهم واوستين
الآمل ، كل الآمل ، بالنسبة للعجوز كوزما دانيلوفيتش . لم يبق لديه من
أحد سواهم موضعاً لثقتهم ورجائهم . فابنه البكر قد استشهد في ضواحي

موسكو ، وزوجته العجوز وأراها التراب منذ عهد قريب ، وهو نفسه يقف اليوم واحدى قدميه على حافة القبر ...

أخذ أوستين على عاتقه - رافة بزوجه الحامل - الكثير من اشغال فروسيا المنزلية : صار يحصل يوميا الماء على النّبوت^(١) من البئر الى الدار ، يوقد الفرن الحجري كل صباح . وحين يصادف ان تتأخر فروسيا في حقل تربية المواشي التابع للمزرعة التعاونية ، كان يقوم هو نفسه بطلب البقرة ويتحضر العشاء ، ثم يستقبل ، وهو في غاية التعب والاجهاد ، زوجته استقبالا لطيفا عطوفا ، شاعرا باللذة من فكرة انه اذ يقوم ، قدر المستطاع ، بمساعدتها فذلك لكي تتمكن هي من ان تنتهي لاداء مهمتها الانثوية الرئيسية على الوجه الاكمل . ومع ان الامر المتربح هو من المسائل الاعتيادية المألوفة الا ان أوستين كان في حال من القلق لم يمر بها في حياته قط . وكان ينتظر ولادة الطفل انتظاره حدوث معجزة ما ، مصدقا وغير مصدق انها ستقع ! .. ولد أستهبه فروسيا ام بنتا ، كان الامر لديه سواء . المهم هو ان يكون طفلا صخابا صراخا ، قويا معافى ... أجل هذا ما كان يرجوه ، يتمناه لأجل الدار ، لأجل فروسيا بخاصة فكر أوستين انه عندما تستقبل الاسرة اطفالا أكثر صخابا واشد ضجيجا لن يكون حينئذ صممه اللعين ملاحظا او محسوسا بما هو عليه الان ، ان الحياة ستغدو اكثر اشراقا واعظم فرحة ...

كانا كادوا يلتقطون انفاسهم بعد موسم اليدار حتى دهمهم موسم الحش الذي قاد الى المروج والمرايع سكان القرية جميعا . أرجأ أوستين

٤ - النّبوت : مقرون الدقة (الصمالة التي يعلق في كل من طرفيها بلو وما اليه) .

عمل الملتاس اسبوعاً بكامله لكي يمضي مسانداً جماعة الحاصدين الضعيفة المتكونة اصلاً من النساء والفتيات ، باستثناء فيودور بريديخين وسيميون غروليوف ذي الساق الاصطناعية الخشبية ، اضافة الى ستيان فاسينين الذي ثبت بالسيز الجلدي مقبض المحشة الى جُذُمور^(٩) يده اليسرى المبتورة . كما بذل كوزما دانيلوفيتش جهده في ان يقدم ، قدر ما يمكنه ، المساعدة للحاصدين . فكان يصلح المحشات ، يشحذ المناجل ، يقلب بالجرافات الخفيفة - على قدم المساواة مع الصبيان - الدريس في الاكوام المتراكمة ، ويقدم النصائح للفتيات عن كيفية التحكم بأكداس الدريس المحصود .

كان اوستين يتحرك - بقميصه المسود الصدر والكتفين - على الجناح الأيمن ، في الخط المتعرج من جماعة الحاصدين والحاصدات . وكان احياناً يرسل من بعيد نظرة ترحيبية باشة الى والده ، متذكراً كيف كان آل ديدوشيف في مواسم ما قبل الحرب يخرجون كلهم ، عن بكرة ابهم ، الى هذا المرج الصغير . وحتى في اوقات الاستراحة كان كوزما دانيلوفيتش القوي الساعدين ، المكتنز البدن أيامذاك ، يظل وهو يعد لنفسه «سيكارلف» يعمل ، ساحباً معه كلاً من ولديه اندري وأوستين . وما أكثر الارشادات والتلقينات الذكية التي كان يسمعها اوستين من والده ! .. انه يستذكر ، على سبيل المثال ، ان افضل الدريس هو المحصود من حافات رقاع الاراضي المزروعة بحبوب الحنطة ومن الاماكن المرتفعة . ان مثل هذا الدريس يدخر للماشية الناشئة الفتية او للعجول والحملان المفصولة عن امهاتها ... اما الاماكن المنخفضة

^(٩) - الجذُمور . اصل الكلمة هو اوله ...

الربطة ، ذات الاراضي البور ، فيأتي منها دريس خشن ، حامض يصلح للكباش والخيول والبهايم المستخدمة في مجال النقل .
كانت حياتنا تسير بمنتهى البساطة والألفة . الوالدة واندريوشا حيان يرزقان ، والوالد لا يشكو من علة أو وهن أو عجز ... إن شئته على الجرار ، وإن شئته على الآلة الحاصدة الدارسة ، أو شئته في ورشة النجارة تجده مستعداً ابداً . أما الآن ، فانظر اليه تراه أشبه ما يكون بشجرة قطعت من أسفلها . هي لا تتداعى إلى السقوط ، إلا أنها لم تعد ، في الوقت نفسه ، قادرة على الوقوف منتصبه . لقد تقوس ظهر الوالد واشتعل رأسه شيباً وما عاد يجد له بين رجال كليوجوفكا من عمل أو مكان ، لم يبق أمامه سوى أن يلهي الصبيان بالاقوال الفكاهة المسلية وسوى أن يحرس عنابر المزرعة التعاونية ، - أخذ أوستين يتفكر متعباً قليلاً ... ثم راح ، وهو يلوح بالمحشة ، يشق طريقه عبر جدار من الغلال والحبوب الخضر ، نحو والده الذي كان يقف فوق أكمة صغيرة .

في صبيحة اليوم التالي كان أوستين يشتغل في الورشة وحده . فقد انحرفت من جديد صحة الجد بانتكرات ، والله اعلم الى اي اجل . وفي مثل هذه الحالات كان أوستين يطلب لنفسه مساعدا . وكانوا يختارون له في عمل الطرق عادة ذلك الفتى الفارح الحثيث والفطن الأريب كوليا أوسينكوف . حين جاء أوستين بطلبه الى ادارة المزرعة التعاونية رأى حشدا من الناس : كان يجري هناك توزيع الناس الصباحي المؤلف وتوجيههم نحو اعمالهم . كان يقف على سقيفة المدخل فاسينين ، ملوحاً بيده الوحيدة وهو يصدر اوامره التي حاول أوستين ان يدرك فحواها من خلال تعابير وجه مدير ادارة المزرعة التعاونية .

اليوم سنعمل على الوجه الآتي : الذين هم أكثر قوة ينقلون الدريس ؛ والذين هم اقل تحملاً يستأصلون البطاطس . أما الطاقة العظمى فادخرنها ، ايتها النسوة ، لاجل الحصاد . انظرون ، اية سنابل قمح ترتفع عالية ، تتاديكن هناك ! - كان فاسينين يتكلم بصوت واطىء لكنه ذونبرة حازمة صارمة ...

وصاحت النساء طارحات ، بالمقابل ، همومهن وطلباتهن :
الصابون ، وعدتنا بأن سنغاله ، ايها المدير ! .. اين هو الآن ،
حقيرنا ، هذا الصربيون ؟

والمح ، متى سيجلبونه ؟

- هكذا اذن ، ايتها النسوة ! - اخذ فاسيين يعط في كلامه . - ولكن

لماذا لا تطالب كوريوشينا بالواح الخشب ؟

- لانك ستقول ان الواح الخشب نحتاجها لأجل زريبة البقر . - اطلقت

نيورا كوريوشينا ضحكة ساخرة ذات معنى .

- إليكن ، ايتها النسوة ، - واصل فاسيين حديثه . - خذن مثالا

للعوي من سواقة الجرارة كوريوشينا .

وقبل ان يتسنى للنساء التجاوب مع كلمات مدير المزرعة التعاونية ،

ارتفع من جديد صوت نيورا :

- لا تعطني الواحاً خشبية ، بل أعطني رجلاً .. متى كان الحبيب الى

جانبي تكن الالواح الخشبية وكل الاشياء الاخرى ...

أرسلت إحدى النساء صفعة خفيفة الى قفا صبية كانت تحوم

بقربها ، ناهرة اياها : «هيا اجري الى بيتكم ... مالك مددت

اذنيك ؟ ...»

- حق .. حقاً ، ما هو كذلك يعني انه كذلك ، - قال فاسيين وهويك

صدغه . - نصف سكان القرية عندنا من الارامل وزوجات الجنود ، ثم

هاكم الصبايا اللواتي بدان يدركن سن الرشد . - وأشار بعينه الى

سرب صغير من الصبايا ذوات الخمسة عشر والستة عشر ربيعاً ، كن

واقفات عند إحدى المصاطب وفي ايديهن مجارف العمل . - هن ايضا

يجب ان نعطيهن أحبة ، عرسانا ، لكن من اين نأتي بهم ؟ ... سننتظر

حتى النصر ...

شيء ما بدأ يحدث خشخشة في فوهة القمع الاسود اللون لمكب

اللمسوت المثبت فوق عمود الكهرباء ثم انفجر مدويا ، بعنف واحتفالية ،
صوت المذيع ليقيتان :

... مكتب الانباء السوفيتية ...

- هس ! ... - ما ان بدأ فاسيين حتى تجمد في منتصف الكلمة ،
والناس الحاضرون ايضا صمتوا دفعة واحدة : لوطارت ذبابة لسمعت
خفيف اجنحتها .

... أمس ، الثالث من تموز ، تمكنت قوات الدبابات لجبهة
بيلوروسيا الثالثة من الصوب الشمالي الشرقي وجبهة بيلوروسيا الاولى
من جهة الجنوب ، تمكنت من ان تندفع الى داخل مدينة مينسك ،
مطاردة قوات العدو المتقهقرة ، ملتفة حول أجنحة تجمعها ... وقبيل
انتهاء النهار كانت عاصمة جمهورية بيلوروسيا السوفيتية محررة
بكاملها من يد المحتلين الفاشست ! ..

اما بقية كلمات المذيع التي كانت تبلغ عن عدد القوات العسكرية
الهتلرية المطوقة في ضواحي مدينة مينسك فقد غرقت وسط هتافات
«أوراء المتباينة الاصوات .

وقف اوستين بلا حراك ، غير واجد سببا للاندماج في الابتهاج العام
الشامل لهذا الحشد الصغير من الناس ذوي الملابس البسيطة المتغايرة
الالوان .

هل سمعت ، يا اوستين ؟ لقد استولت قواتنا على مينسك ! - هتف
فاسيين وقد دنا ، راكضا ، من اوستين ثم راح يعانقه . ابتسم اوستين
مرتبكا ، دون ان يدرك - على كل حال - الدافع الحقيقي لاحتفال ابناء
قريته .

عندها خطف فاسينين غصينا أملوداً ثم اخذ ، وهو يردد : «تنحين ،
ايتها النسوة ، تنحين جانبا» ، اخذ يستنبت على الارض الرملية ،
بحروف منقطعة مضطربة ، كلمة «مينسك» .
شرع أوستين يهز رأسه ، أمسك بياقة قميصه ثم فتحها وكأنه صار
يشعر بحرارة الجو .

ما ان تفرق الناس منصرفين حتى اقترب من فاسينين وبين له
بالحركات والايماء ان هانكرات متوَعك الصحة ، وان الحاجة تدعو
الى ارسال كولكا أوسينكوف لكي يساعده فترة من الزمن في ورشة
الحدادة .

أمس استلم نيكولاي دعوة الى الخدمة العسكرية ، - تكلم فاسينين
ولوح بيده موضحاً . وبعد ان سكّت لحظة أضاف قائلاً بصوت
خافت : - لكن ابنتي تانكا قد تعلّقت بالفتى تعلّقاً تاماً ... واذا حدث له
- لا سمح الله ! - شيء ما من قبيل ... فسوف تقضي الصبية نحبها غما
عليه ...

لقد استطاع فاسينين ان يتحدث الان بشجاعة عن هذا القلق الخفي
للاغاية مع شخص واحد فقط ، هو أوستين الذي راح ينظر اليه بفطنة
لكن بدون اجابة ، كما الايقونة تماماً .

ذات مرة ، في ظهيرة يوم خريفي صباح لكنه بارد ، اخذ اوستين يعد بنفسه عدة اللحام ، غير منتظر مجيء بانكرات ، بذرقدرأ من «البندق» والرمل ، قلع بالازميل قضيباً معدنياً معداً الى اجزاء دفع بها الى جمر الفرن النافث تيراناً ومضى ليدخن سيكارة تحت أشعة الشمس . وسرعان ما شاهد ابنه بافلينك يسير في الطريق حاملاً بيده صرة صغيرة . «هاهو ذا الفطور قادم» - بدأ اوستين يتنسم لابنه المقبل نحوه . وفي حين كان اوستين يأكل طعامه تناول بافلينك لوحة من الخشب الرقائقي وقطعة من الطباشير ، كتب لآبيه كلمات وارقاماً تبلغه بالاخبار المنزلية : ساعدت ماما في كنس باحة الدار وفي تقطيع الكرنب ...

ضم اوستين ابنه - في شيء من الغلظة - الى صدره وكأنه يريد ان يجعله يسمع في جسمه الصامت نبضات قلبه الجنون .

وفي تلك الاثناء لاح في فتحة الباب سائس الخيل «جدو» غافريلا ومن خلفه خطماً حصانين . وضع السائس بالاشارات الغاية من مجيئه . ترك الجوادين عند مربط الخيل وبعد ان دخل الورشة ، جلس على المصطبة جنب اوستين . أنهى اوستين ، على مهل ، تدخين سيكارتة اللف ، اخرج درجاً فيه أطقم من الحدودات والمسامير الخاصة بحدوات الخيل . وبعد ان تناول المطرقة من فوق السندان خرج منطلقاً الى

الفضاء حيث الحصانان .

كانت الفرس المسنة الصهباء ، ذات العطفين المحكوكين المتدليين والبطن المرتخي ، تقف ناعسة على قائمتيها القصيرتين المنفرجتين نحو الجانبين ، وكأنها تحتذي خفين مهلهلين باليين تماماً . أما حافرها ، اللذان كانت تغطيها نتوءات دائرية ناعمة ، فقد تصدعت حافتهما المقوستان المثلومتان ... مسح أوستين برافة على غارب الفرس ثم رفع قائمتها اليمنى وعابنها ، هي وما تبقى من حدودها العتيقة المسحوقة المسوحة . ليس عملاً ، بل عقوبة تصليحك مثل هذه الحوافر . لو كان بانكرات هنا لما سكنت ، لوحد كلمة قوية منشطة تليق بكل من الفرس والسائس معاً . لكن أوستين نعل ، بصمت وبسرعة الفرس المسكينة ، قضب حافات الحوافر المثلومة ثم ساواها بالمبرد .. عادت الفرس وكأنها قد اقتنت حذاء جديداً ؛ وقفت ثابتة فوق العشب الأملس الزلق ولاحت كما لو أنها قد استعادت شيئاً من شبابها !

أما الفرس الأخرى الكستنائية اللون ، التي كانت ما تزال بعد في عزّ فتوتها ، تميزها حوافر ذات أغشية لامعة ملساء ، أما هذه فقد تصور أوستين أنه سوف ينعلها في وقت أسرع . لكن الكستنائية كانت مضطربة ، غير هادئة ، تشذربعينها ، تحرك بسرعة أذنيها وتجفل من أدنى لمسة .

- طرررر ، مكانك ! هيه ، ماذا دهاك ؟ ... مهما وثبت الفرس فانها تظل في النهاية داخل الطوق . أما أنت فتحلمي قليلاً ، ها ، ها ... - راح غافريلا يلاطف الفرس بصوت خشن جهير ويلف ، أقوى ، فأقوى ، زمام اللجام على مرفقه . غير أنه لم يتمكن من السيطرة على زمام الفرس

الفتية .

- ابتعد والا كدمتك ! - صاح غافريلا ، محذراً بافليك الذي كان واقفاً قرب المريط .

تناول أوستين المقود الجلدي من يدي السائس وربطه الى عارضة خشبية معمولة من جذوع الشجر . أرخت الفرس رأسها صاغرة ، لكن ما أن تسنى لأوستين أن يمسك قائمتها الامامية ليضعها في الجلاخة حتى تندحت عنه مجفلة نافرة . وفي اللحظة ذاتها أطلق غافريلا صرخة وبدأ يثب على احدى ساقيه ، نافضاً وهو يتجشأ ساقه الاخرى التي تعرضت للدوس . ثم اندفع فجأة ، وقد التوى وجهه من شدة الألم ، نحو الفرس وانهاled بقبضة يده على وجهها ضرباً بكل ما لديه من قوة ... ارتمت الكستنائية الى الجانب سريعاً ، فلوى الزمام المتوتر رأسها بعنف وألم ، واحتكت الشكيمة المعدنية بشفتيها . قفزت الفرس شاخرة الى الخلف ، نحو المريط ، شبت ثم انطلقت - بعد أن قطعت الزمام - تجري نحو البرية . لم يشاهد أوستين كيف اصابت الفرس بافليك بركلة وطرحته ارضاً . ركض مسرعاً نحو ولده ، اخذه في يديه ونظر في وجهه . كان بافليك غائباً عن وعيه .

- غُنيثني ... أوني ... نني ! - بدأ أوستين يصرخ بضراوة وهو يتطلع الى عيني ولده شبه المغمضتين . اقترب غافريلا راکضاً ، الصق اذنه في صدر الصبي ، ملطخاً خده بالدم .

- يتنفس تنفساً قصيراً . هلموا به سريعاً الى الوظيفة الصحية .
- اعتصر السائس كلماته وهو مصعوق رعباً وعجزاً ...

لم يعد هافليك الى وعيه الا في المركز الصحي ، حيث جاء به اوستين .
ازالوا بالغسل التراب والدم عن وجهه المتورم ، ضمدوا له خدوشه
فابتسم لوالده ، شاعراً بالذنب وسار من المركز الطبي الى البيت
بنفسه . اما اوستين فلم يستطع بأية حال ان يعود الى سابق هدوئه ، ان
يتخلص مما به من قلق وانفعال ومعاناة ... ظل مبهوئاً ، يسير بشكل الي
تلقائي جوار ولده ، ممسكاً به - غير مصدق عينيه - من يده حياً عزيزاً
غالياً ، هذا الذي كاد قبل قليل ان يذهب منه هدرأ وتهوراً ...

بعد ان اوصل ابنه الى البيت عاد ثانية الى السورشة ، شرع يلتقط
- نابذاً - من الفحم قطع الحديد المتقوصة التالفة بتأثير الحرارة
المفرطة ... ثم جلس يستريح ، بعض الوقت ، عند النافذة ، وفجأة حل
محل الصدمة ، الهزة التي انتابته ، اعياء بل نعاس مباغت ، سريع ،
غير طبيعي ... أمام النافذة كانت ترتع في سكونية - كما في المنام - عجول
فتية على المراج الصغير ذي العشب الباهت الخضرة ، راح ينفث دخانه
جرار يسحب خلفه مقطورة شحنت حتى حافاتها بالدريس ... كان كل
شيء يتحرك بدون صوت وبشيء من البطء . في حين اخذت تضرب النافذة
المغبرة نحلة كبيرة طنانة - ساعية الى الافلات نحو الفضاء الطليق . راح
اوستين يرنو طولياً وبلا تفكير اليها .

شعر بغثة بخطر مبهم ، وهمي . لاح له ان في السماء ، في الكوى الزرقاء ، شمة شيئاً ما قد تغير تغيراً مضطرباً ، منذراً بالأذى ، صار يطن طنيناً دقيقاً ، رقيقاً ، غير واضح ... تلفت أوستين حوله ، هز رأسه وتوتر بكامل كيانه ، حتى انه أغمض لبرهة عينيه ، جاهد أن يلتقط ، يلمس ، يحس ، يدرك ذاك الشيء الذي بدا له طنين بعوضة خافتاً قصياً : ميلاد صوت ...

جلس أوستين هكذا نحواً من دقيقتين اثنتين كأنه يتسلل عميقاً ، يسوغل بنهم ولهفة في ذاته ، في احساسه المبهم هذا ، معتبراً تلك الضوضاء الغريبة في أذنيه لعبة شريرة ، مغالطة أخرى جديدة من مغالطات وثأته ، عاهته ... لكنه ادرك فجأة ، بإحساس الجندي ، ان هذا ليس تشوّف بعوضة إطلاقاً ، بل هو ذلك الهدير الكامن في الذاكرة ، الخيم عليها ابد الدهر ، يستفز الروح ويقشعر منه الجسد : هدير الموت المجنح : المشرع نحوك من أعالي السماء ...

«اي نعم ... يحلقون هم الخسيسون الاوغاد ، لعنهم الله ! ها انهم ، ويل لهم ! يقتربون خفية ، على رويدهم . لكن ، من ذا الذي تستهدفون قصفه هنا ؟ العجول الصغيرة تلك ، اياي ، ام من ؟ .. بالكم من سفلة لثام ! ..» - أزيد أوستين من بغض قديم ، شاعراً بالعجز المأساوي الذي يلف قريته الحبيبة وبعدم قدرته هو على ان يحميها ، يدرا عنها الهدير الزاحف نحوها من قاذفات القنابل المعادية . راح ، وقد انقبض في سره ، ينظر بعناد الى السماء ، باحثاً عن الطائرات المألوفة ، بلونها الاخضر الموحد وبصلبانها السود المعقوفة ، لكنه لم يشاهد شيئاً . بيد ان الازيز المرعد المتوقع لم يهدأ ، بل اخذ يزداد

ويقوى . هن أوستين رأسه : ما هذا الذي في داخله ؟ أهو حلم ام
وسوسة شيطان ؟!

«نذو .. نذو .. نذو .. وو» . - كان انصوت يلامس مسمعيه ملامسه
اكثر جلاء ...

فجأة رأى النحلة الكبيرة الطنانة التي ما فتئت تضرب باصرار
ومثابرة في زجاج النافذة . ضغط عليها عفوياً ، دون ان يفكر ، براحة
كفه فأختفى الصوت . أفرج أوستين عن النحلة فبدأت هذه تطنطن
بقوة ، معبئة بالزجاج ، وإذا بالكون كله يمتلئ مرة اخرى بخطر
القصف الجوي ! ...

وقف أوستين متسماً ذاهلاً ، خافق القلب ، يتملكه شعور بالهلع
والبهجة في أن معا امام الحياة ، امام تلك الطاقة الصوتية التي انبعثت
فيه من جديد بعد ان كانت صلته قد انقطعت بها ، نسيها ، اختفى عنها
اختفاء اكيداً يحميه درع واق لانفاذ منه . والان ، تحطم الدرع ، تهرأ
كاشفاً أوستين امام الحياة امام الوجود الناطق الذي راح يعلن عن
نفسه ، بجلاء اكثر ، مع كل دقيقة تمر ... كصرير باب غير موصد ،
كثقبشة عسافير تحدث ضوضاء فوق السطح ، كطقطقة جمر متقد في
الكانون ...

لم تكن الاصوات تبلغ سمعه بعد بوضوح تام ، بل كأنها كانت تأتيه
عبر حاجز قطني ، ولذا بدت غير حقيقية ، فلم يصدقها : لم يصدق
عودته من اسر الصم البكم الذي كان قد وقع فيه قبل اشهر عديدة ،
بفعل الانفجار الهائل الذي احدثته تلك القذيفة التي سقطت في
موضعه ... وبعد محن ومصائب طويلة مرت به في المستشفيات

العسكرية ، سُرَّح من الجيش المحارب باعتباره معوقاً . ورحل الى اهله في القرية .

تسللت الى باب الورشة ، خلست ، كلبة سائبة وراحت تشمش في الزاوية ، غير منتبهة الى وجود اوستين عند النافذة . لَوَّح لها اوستين مهدداً ، ثم راح يصرخ بها ناهراً :

غي... ئي... ولي!

انكفأت الكلبة بسرعة نحو الباب وهي تهر هريراً خافتاً . اما اوستين فقد وقف مذهولاً من فرح وخوف ، بعد أن سمع هريرها الخفيف وصوته المتلثم . ثم أخذ يمشي بهدوء ، ذهاباً واياباً ، على ارضية الورشة الترابية ، حاملاً في سره - بعناية وحرص - الثبأ النفيس ، مسروراً به وغير مصدق . ولكي لا يُتفربل ليرسخ هذه الفرحة ويؤكد لها ، تناول المطرقة ونقر بخفة على السندان . اصطدم رنين المعدن رخيماً بأذنيه فتلقف بمتعة وتلذذ صوت تماس المطرقة والسندان . كانت مثل هذه اللحظة تتأكد ، فيما مضى ، باليد والعين فقط . اما الان فهو يسمعها سمعاً .. وكم يبدو مهماً مثل هذا الامر بالنسبة للحداد : أن يسمع صوت المطرقة !

أخذ اوستين وهويشتغل بالمنفاخ يرمي في الجمر المتوهج بعضاً من قطع الحديد ، وحين احمر لونها تناول الملقاط وانتشل من الجمر الابيض قضيباً حديدياً متوهجاً ووضع فوق السندان . كانت تقف على طول الجدار عدة مطارق وملاطيس ، بعضها الى جنب الاخر حسب

قاماتها ، مكونة شكلا هرميا منسقاً ... اختار اوستين اللطاس الاوسط ثم لوح ، وهو يمسك المعدن المطروق بملقاطه ، لوح باللطاس الناطق الذي غدا جراء ذلك ، خفيفاً في يده . وبطاقة متجددة وحماس بهيج ، ظل يمطل الحديد اكثر من ساعة ، صانعاً منها اسناناً للمسلفات . وفي لحظات الاستراحة والتدخين كان يجلس مواجهاً الباب ، منتظراً بلهفة وقلق مجيء الناس ، ماسحاً موجات العرق عن جبينه .. كان يعيش تقريباً ذلك الاحساس الذي يحمله الانسان وهو يقترب بوجل - بعد غياب طويل - من مأواه الحبيب ويفكر كيف سيتلقونه ، أية جلبة سيحدثه قدومه المفاجيء هذا ؟ .. ومع كل لحظة كانت تنمو في داخله اللهفة الى مشاطرة أي من الناس فرحته العظيمة هذه . ولم يعد راغباً في أن يبقى وحيداً اكثر من ذلك . غسل يديه وبدأ يتأهب للذهاب الى داره . بعد ان خرج اوستين من الورشة حاد عن الطريق وراح يمشي الى اسفل ، عبر المرتع مباشرة ، بخطوات سريعة نحو بيوت القرية .

فوق شجرات الحور الرجراج الضخمة القائمة عند البركة كانت
غربان القيقظ تصرخ بفاعلية مرحة ، مجتمعة في أسراب مرتدة ، ومن
سطوح العنابر والسقائف راح يتعالى في روح قتالية بهيجة صياح ديك
بديعة مختلفة الألوان والأنواع ، وفوق الرؤوس كانت تحوم خطاطيف
جميلة جذابة ، وفي المرباع والمرجات الصغيرة المخضرة أمام نوافذ
البيوت كانت ترتع ، هنا وهناك ، متبخثرة مزهوة ، بطات ريلات^٦
تتربص وتترقب في حذر وغلو وغيرة حاقدة وهي تحرس نتائجها الناشئة
النابت حديثا .

عندما حاذى أوستين واحدة من هاته الأوزات ربات العيال ، اندفعت
الأم الفتية ، في اللحظة ذاتها نحوه مقوسة عنقها بضراوة وفدت فحيح
أفعى حانقة . توقف منتظرا باستسلام لذيذ إقبالها عليه وبسط في وثام
يده للقائها كي يمسدها ، يمر بها على رأسها السنجابي المستطيل
ومقارها الأحمر المفلوع ، المنفرج في غضب عنيف .

كل هذه الأصوات التي لامست أذني أوستين : فحيح طائر الأوز هذا
المنذر المهدد ، ونعيب الغربان ، والصرير الخشن الفظ الذي ترسله

٦ - ريلات : سمينات (مفردة ريلة) . كثيرات اللحم . والريلة أيضا كل لحمة غليظة ، أو هي
باطن الفخذ . وأما ريلة وريلاء أي عظيمة الريلات .

البوابات من مكان ما ، ونخير الخنوص^(٧) المضجر المسنم في حظيرة امرئ ما ، وحتى خفقان جزمته العتيقة على الطريق الأحرش السور ... ، كل هذه الاصوات المألوفة ، التي لم تكن في السابق ملحوظة - كما الهواء - تقريباً صارت الآن تبعث في نفسه الفرح بما يعجز عنه الوصف ... راح ينظر بعينين جديدتين الى الأشجار والاسوار ، الى البهائم والأطيّار ، الى المنازل والأجواء ، وإلى الأرض والسماء ... كل شيء كان موجوداً في السابق ، وكلّ كان مغايراً تماماً : كل كان يزقزق ، يشقشق ، يحف ، يخشخش ، يصدح ، يغرد .. لقد ولى ، الى غير رجعة ، كل الفراغ الآخرى الصامت ...

وامتناناً لما حدث في داخله ، معه ، وفي ما يحيط به من عالم رنان ، اراد أوستين ، من فرط المتعة النامية في نفسه ومن فرط السعادة التي غمرت قلبه ، اراد الآن ، في هذه اللحظة بالذات - دون ان يفقد اية دقة من وقته - ان يندمج بهذه الحياة ، ان يتوحد معها ... لقد أحس إحساساً حاداً بأن الاصوات المتبجسة المتدفقة من كل مكان قد غمرت جسمه المخلّج المبتهج كله ، فصار رخيماً مثل اغنية مجنحة جميلة الايقاع ...

شرع يهيمهم ، يهتف مخرجاً بعض الاصوات ، ثم اذا به يغني فجأة بصوت أخرق متناقل :

أ ... أه ، استقف ... بلتْ أُم ... مُم وليد ... دها ... بدالسانه متثاقلاً متعثراً ، كانت الكلمات تتشكل بعسر ، بدون انصياح ، فأدرك أوستين

٧ - نخير الخنوص : الخنوص . ولد الخنزير . والجمع خننايص ونخير ينخر . اي مة الصوت في خياشيمه .

ان عليه ان يتعلم النملق من جديد . وحين مربمحاذاة دار والده ، مال نحو الباب الخشبية المألوفة .

كان الوالد العجوز يشغل بدون كلال في أحواض الخضار الصغيرة الخالية من الزرع ، جارقا ومكوما أوراق البطاطس . اقترب منه أوستين من الخلف ، احاطه بذراعيه ، وبعد ان دارا معا بعض الوقت أجلسه فوق عرمة أوراق البطاطس .

إيه ، أوستين ، ما بك ؟ هل فقدت عقلك بالمرة ؟! خلّ عني . سوف تأخذني الدوخة ... دع المزاح والرعونة للآخرين ، فهما لا يليقان بك . ان بليتنا فادحة ، - كان كوزما دانييلوفيتش يرسل صيحاته وهو يتملص ، متخلصا من يدي ولده القويتين المرحتين . - ها ، قل لي كيف حال بافلينك ، أفضل ؟

وقف أوستين قبالة والده وراح ينظر في وجهه بعينين تبدوان مشدوهتين تقريبا ، دون ان ينتبه الى يديه الملوحتين المستقرتين غن أمرما . صارت الاشارات الان من الامور الفائضة . لقد سمع الصوت الحبيب ، صوت والده الخافت المصحوب ببجاح الشيوخوخة المتهدج ... إلا أنه ، وهو في غمرة السعادة ، فكر فجأة بمرارة في تلك الاحاديث الصامتة الكثيرة التي كان والده ، شأنه الآن بالذات ، يلوح بها بيديه ويحركها بين شفثيه . «كان في كل مرة يثرثر معي وكأنه يحادث شخصا مساويا ، مثيلاً . مع انه كان يعلم انني لا اسمعه . ان كثيرا من الكلمات التي وجهها الوالد إلي كانت تطرقني - كما تطرق الجدار الحجري - لترتد دونما جواب ...» .

- طيب ، ما دمت مرحاً ومنتعشاً يعني أن الهم قد انفرج ... - نهض

كوزما دانيلوفيتش ، نفّض عن نفسه شيئاً ما ، ثم راح يدنوم من الممر الداخلي ، صارخاً في الباب المفتوحة : - أي فارقارا ، مدي السعاط ، أوستين عندنا ! .. أجل ، يابني ... نسكن غير بعيدين عن بعضنا ولا نتزاور إلا لماماً . لكن مهما يكن فعليك ان تأتي فيرى كل منا الآخر . إن ذلك سوف يخفف عني - أنا الرجل العجوز - كثيراً ... انني أعيش وحيداً ، ماذا أقول لك أكثر من هذا ؟ أما فارقارا فهي تعيش هنا لتتعهد الامور المنزلية . حسناً ، والان هيا بنا لتطعم من حسامتا الكرنبى ... - لا ... انا الى بيه ... ختنا أريد ، - قال أوستين ذلك مثلجلجلاً ...

ارتعش كوزما دانيلوفيتش وحملق باضطراب في وجه ولده .
- يا الهي ، أتراني أخطأت في السمع ؟ ... يشبه ان شخصاً ما كان يتكلم الآن ..

- انا ذ - ... حكلت يا أبي ، - تحدث أوستين بصوت أعلى ثم تحرك بخطونحو والده .

تراجع كوزما دانيلوفيتش الى الوراء وهو يطرف بعينيه مرتعباً ، ثم جلس كالمصعوق على الجرن القديم ، قرب السياج ذي الاغصان المجذولة .

- بُني ، ولكن كيف ؟ .. أحقا انك تسمعني . ها ؟ أوستينوشكا ، ها اننا قد عشنا وسمعنا ! .. أه ، يا إلهي ! .. كلا ، ام تذهب صلواتي ودعواتي ادراج الرياح . ولكن هيا اجلس لتتحدث ، يابني ، تعال خبرني .. هيا ، عن كل شيء . كيف عاد اليك موتك ؟ - انتابت كوزما دانيلوفيتش ، من فرط التهيج والاضطراب : نوبة من النهجان وضيق النفس ، وتلبدت بالدموع عيناه الرماديتان الكابتيتان . - هيا قل كلمة ما

أخرى ، يابني !.. لا تصمت ، كلمني ، تحدث معي ! .. لقد سمعتُ ، يحدث مثل هذا هيايُنَا نذهب الى داخل الدار ، ولكن لماذا جلست انا ؟ مثل هذا الحدث يستحق الآن أن ...

قام كوزما دانيلوفيتش من فوق الجرن الخشبي ، الصق رأسه الاشيب الحاسر بصدر ابنه وتسمر ساكناً في مكانه .

مرحبا ، دانيليتش ! .. الجريدة وضعتها لك في مكانها ، - طرق السمع صوت فتاة ذو مرح متكلف ، وعلى السياج كان يلوح للانتظار ، بين حين وآخر ، منديل ساعية البريد تانكا فاسينينا ، عائماً بتموجات لونه الاحمر .

تطلع كوزما دانيلوفيتش باهتمام وتجهم الى ناحيتها :

- تحمل الاحزان والبلايا الى البيوت .. انني اخافها . صرت انفر من منظرها منذ ذلك اليوم الذي حملت فيه الينا نبأ استشهاد اندري . ما ان تظهر تانكا سائرة في مواجهتي حتى اذهب باحثاً عن ركن ما التجيء اليه . - تنحى عن اوستين جانباً وراح يتلفت ، متوجساً ، حول مختلف الجهات . - ألم تسترق السمع الينا ، يا اوستين ؟ هل كانت هنا عند الباب منذ زمن طويل ؟ - فجأة شعر العجوز بالقلق .

- له ... لا أدري ، - اجاب اوستين ، غير مدرك سبب هذا التحول الذي طرأ على والده .

اخذ كوزما دانيلوفيتش يتمشى في باحة المنزل ، متلفتاً وراءه وكأنه يحاول ان يجد مكاناً يختبئ فيه . وقف قليلاً يتفكر ، ثم دنا من صندوق البريد الذي كان معلقاً في الجهة الداخلية من البوابة ، انتشل منه الصحيفة وعاد ادراجه الى اوستين .

- لا أستطيع ان ارى الحروف بدون نظارات . وانت ، الم تفقد القدرة على القراءة ؟ هاك اقرأ . كيف تسير الامور هناك ؟ .. - قدم كوزما دانيلوفيتش الجريدة الى ولده فقلبها هذا نحواً من دقيقتين في يديه ، ماراً عليها بعينه .

- يا ... يتأهبون لـ ... لفصل الشتاء - ردّ أوستين .

لا ، لا ، ابحث لي عن اخبار الجبهة . ماذا هناك ؟

- ولكن ، لـ ... لاشيء . إليك ما كـ .. كتب ... على جـ ... جبهات القتال لم تـ ... تحدث تـ ... تغييرات مـ ... ملموسة ، تـ ... ستدور مـ ... معارك ذـ ... ذات اهمية مـ ... محلية .

- امين الالمان الان ، واين جمعاعتنا ؟ - قاطع كوزما دانيلوفيتش ولده في لهفة ونفاذ صبر .

- لم يـ ... يكتبوا هنا عـ ... عن هذا .

- لكنني اعرف . بصري ضعيف ، غير انه يوجد - والحمد لله ! - في الدار راديو . فاسمع ما اريد ان اقوله لك ، يا بني ! .. لم يبق لقتالنا مع الالمان إلا القليل من الزمن ...

نظر كوزما دانيلوفيتش ، متلصصاً ، نظرة ارتياب الى باب الدار ، قبض على مرقق ولده وقاده الى الركن القصي من باحة المنزل حيث حفظت تحت السقيفة اكوام من الدم المجلف على شكل قوالب لغرض السدنة اثناء فصل الشتاء . جلسا صامتين فوق كتلة من مفروش خشبي .

« انني في غاية السعادة من أجلك ، يا بني ، لدرجة الارتعاش بكيايني كله . انك الان تبدو وكأنك قد اتيت من جديد الى هذا الكون ، - واصل كوزما دانيلوفيتش كلامه بحرارة وتأثر - . انت الآن ولدي الوحيد ،

أجل الوحيد الذي لدي في هذه الدنيا ... وانني لا أريد أن أفقدك ، لا أريدك أن تضيق مني ، لن يبقى لي بعدئذ احد ... وفي الحرب لن يُدخر الناس ، انها تلتهم الجميع . انظر ، لقد اجترفت القرية اجترافا ، شطفتها تماما ؛ شبان كليوجوفكا جميعهم هناك ، وقد بكينا الكثيرين منهم ، لحدناهم دون ان نراهم . وانني لن ادفع بك اليها ، لن اسمح لك بالرحيل ! لا أريد ... كفاهها ، هذه الهوة الخرقاء ، هذا المزرد البشع النهم الذي لا يشبع ... أجل ، كفاهها مصرع شقيقك ئندريوشا . انه راقد تحت التراب . وسترقد انت ايضا ، يا بني اذا رحلت . هيا بنا الآن نتناول لقمة من الطعام ما دامت الفرحة قائمة ... وستمسك عن الكلام الى حين . نعم . لا ينبغي لك الاعلان في الوقت الحاضر عن انك سليم معافى ، سيرطونك فورا الى هناك ، الى المكان الذي قدمت منه . لا مجال الآن للثرثرة والمناقشة والجدال ... يتفقونك : ان وجودك سليما فاقرا السلام ! .. لا ، لا اريد ! .. لن اسمح ! ..

نشج كوزما دانيلوفيتش ، وضع طية صدر سترته على عينيهِ المخلضتين بالدموع . لكن اوستين لم يبد عليه انه قد فهم بعد مقصد والده تماما . جلس متخسبا باهتا ، محدقا امامه في الفراغ ، في لا مكان .

- هكذا اذن ؟ .. جد .. جئت لكي ا ... ا ... افرحك ، ولكن .. قال اوستين ذلك متنهداً .

- انت قدمت يا بني ، عطاك ، قاتلت بما فيه الكفاية . وأنا عدت من الحرب الاهلية مصاباً بجرحين . شقيقك اندري يرقد عظاماً في ضواحي موسكو . خلاص اكفانا ، نحن آل ديدوشيف ! لقد وهبنا الحرب ما

علينا من ضريبة دم . دع الآخرين كذلك .. ما ان توقف كوزما
دانييلوفيتش عن النسيج حتى بدا فجأة يصرخ باكياً بكاء عنيفاً
مريراً ..

- أناذ .. ذاهب الى البيت . ١ .. أفرح فروسيا في الأقل .. تكلم اوستين
ثم نهض واقفاً .

- هل جننت ! شدّ كوزما دانييلوفيتش ، بقعة ، على سروال احدى
ساقى ولده - أم عاد اليك الصمم ثانية ؟ الاتسمعني ؟ «يفرح فروسيا»
هي بحاجة اليك حياً ترزق ! ومن اجل هذا عليك ان تعض على لسانك .
ارجوك ، الشمس منك ، بحق المسيح ، يا اوستين ! ليس سوى البليد
الاحمق من يشي بنفسه عن نفسه .

- يعني ان لا اخبر حـ .. حتى ز .. زوجتي ؟!

- افش سرك للنجاجة فتشره بكل لجاجة ! اليوم تعلم الاسرة دون
غيرها ، وغداً القرية بأسرها .. أما انت فما عليك الا أن تنتظر اقل من
شهر .. انك المكن ، تعناع ! أية جدوى تجنيه الجبهة منك وانت على هذه
الحال ؟!

- عـ .. عبتأت .. تخوفك يا ابي . لن ينـ .. يحدث لي اي شيء ..

وشب كوزما دانييلوفيتش من جزلة الخشب ، وقف قبالة اوستين ،
وضع يديه على كتفيه ، كأنما يهدئه ويثبته :

- ان المزرعة التعاونية أحوج اليك الان ، ورشة الحدادة قائمة على
عاتقك ، مصيرها كله متعلق بك . حارب هنا بالملاطيس والمطارق ..
وأمسك لسانك الان مربوطة بمقود !

- فـ .. فروسيا .. كـ .. كلمة واحدة اريد ان اقولها لها ، بدأ اوستين

يحتاج .

- من صبر ظفر ! والرغبة دواؤها الاناة والجلد ! - بقساوة مصحوبة بتلك الصرامة الابوية القديمة ، المألوفة من سالف العهد ، قاطع كوزما دانييلوفيتش كلام ولده - المهم هو القليل من الانتظار . اذا حكمنا الامر ، ناقشناه ... فانك لست واحداً من اولئك الذين هربوا من الجندية ، لست فازاً أبقاً او شخصاً عاصياً متمرداً .. لست من اولئك الذين يتسكعون متوارين في الغابات .. او ممن يختبئون في الاقبية والعُلَيَّات .. انك هنا في وسط الناس ، امام انظارهم بهي عمك ، نفيسة صنعتك .. ان فاسينين - اسمع - لعظيم المسرة بك ، كثير الامتنان منك . فلتعش اذن . ولا تحددق بي هكذا . لا ابتغي لك سوى الخير !
نعم !

أحببت كلمات الوالد الفرحة المتوقدة في قلب اوستين فراح يقاوم هذا التغير الفجائي المؤلم القاسي .. لم يتسن له ان يتفهم ، بل انه احس فقط - في استياء وحيرة - اتجاهاً ما ، منقلباً غادراً في سحر الامور وتطورها : لقد عجل في المجيء الى بيت الوالدين لكي يسعد آياه ، لكنه كدره واقلقه ، اشغل باله ليس إلا ، اراد ان يفرح أسرته ، غير ان مثل هذا العمل يبدو مستحيلأ تماماً ، بل وخطيراً ! فأية فرحة ، اية سعادة هذه اذن ، مادام محظوراً عليه ان يشاظر حتى اقرب المقربين اليه ؟
- هـ .. هراء مات .. تقوله ، يا أبي . انالم اكن من الجبناء . هـ ..
هناك . قـ .. قاتلت بشرف الوجدان ، بما يـ .. يعليه عـ .. علي ضميري ، كـ .. كرمتم بنوطين .. والان كـ .. كأنما عـ .. علي ان اتكتم عـ .. عن اطفالنا الاحياء ، ان العب لعبة الصمت .. مع الناس ، صـ ..

صحيح ؟ ان افرض عـ .. على نـ .. نفسي و.. مثل هذه العبودية ١٩
لا ، ابدأ ! هـ .. هذا مالن استطيع فـ .. فعله .. مـ .. مطلقاً تكلم
اوستين بتأثر وانزعاج ، بارتباك وتشوش ، بمشقة وجهه .. مشيحاً
بوجهه قليلاً عن والده .

هو الان يشعر بالندم ان قد عرج في طريقه من الورشة على بيت
والديه . فلو كان تجاوز هذا الحديث مع ابيه لثم ، على الأرجح ، كل ما
هو أت بسهولة وبساطة ومسرة .. أما الان فان الفرحة قد امست
مجعدة ، مدعوكة من اصلها تماماً .. تلبدت نفس اوستين بببلبة
مضنية ، فالتقى نظرة عتاب على والده الذي كان منكمشاً ، منقبض
النفس من كلمات ابنه الاخيرة . وشعر اوستين فجأة بالحزن والاسى على
العجوز .

ـ لماذا تـ .. تنوح وتتحسر سلفاً ؟ تكلم اوستين بلهجة اكثر ليناً .
لماذا يـ .. يجب ان ارحل الى الجبهة ؟ انا مـ .. مسرح من الخدمة .

حملت هذه العبارات الى كوزما دانييلوفيتش بعض العزاء
والسلوان ، بشرته بالامل : ليس اوستين على هذا المستوى من العقوق
البليد بحيث يركل نصيحة والده ، ضارباً عنها عرضاً .

ـ ما الذي سألته انا ؟ بقي لي من الحياة قدر ذراع . انني اكرث من
اجلك يا بني ، من الافضل لك ان تصغي الي والافسوف يكون الوقت
متأخراً جداً . اخذ العجوز يتكلم ، متضرعاً ومتوعداً في آن معاً وهو ينظر
بيأس شجي في عيني ولده . ان عوقك هذا كان من الممكن ان يزول عنك لا
في هذا اليوم ، بل لنقل في آن اخر . بالنسبة لك ولي ان صممك الايكم
اللعين قد انتهى . والحمد لله ! ـ الان . اما بالنسبة للناس فدعه ينتهي

في وقت آخر ، أجل .. من سيعلم بهذا الامر سوانا ، نحن الاثنين . خذ
بالك من نفسك يا اوستينوشكا . من اجلي ومن اجل طفليكَ . ثم ان
فروسيا - كما تعلم - على وشك ان تضع مولودها الثالث فلننتظر اذن او
ان يجيء طفلك الجديد . تطلع اليه !

وقف اوستين امام والده متجهماً عابساً ، في تهلل خامل ، ساعياً
جهده لئى ان يلم اطراف افكاره فيوطد عزمه على شيء ما . وهذا الامر
كان يتطلب كما بدا له ، ان يخلو الى نفسه . ان ينصرف بأسرع ما يمكن
عن والده . اما كوزما دانيلوفيتش الذي حرز تماماً قصد ولده ، فانه
شرع يبتسم له في حنان ولطف .. ثم مسكه من كفه :

- فلنمض يا اوستين . سنتناول الان حساء الكرنب الساخن قبل ان
يلج كوزما دانيلوفيتش في داخل ممر الدار ، وضع اصبعه المعقوف قليلاً
على شفثيه وهتف هامساً وفي مقلتيه بصيص ضياء متوسل توسلاً مؤلماً
لكنه محذر تحذيراً صارماً :

- لا تهلك نفسك يا بني !

اتماً تناول طعام الغداء صامتين . اغترف اوستين بلا شهية من صحن حساء الكرنب الساخن ثم قام ، تاركاً المائدة مع سابق رغبته الحالكة في ان يذهب الى مكان ما ويخلو الى نفسه . كان يختلج في صدره نوع من الاحساس كما لو انهم يحشرونه في مبنى ارتفاعه اوطأ من قامته ، مما يستحيل عليه ان يستوي قائماً ؛ لان في ذلك خطراً جسيماً حدّ الهلاك . وكان من العسير عليه ان يدرك ، يقرباً أن هذا الاكراه والقسر اللطيفين الرقيقين المفعمين بالدموع ، قد صدرا حقاً من والده الحبيب الذي يرجوه - لابنه - الخير والسلامة والهناء .. انه لطف ماكر مخادع كالفخ . وهو ليس مقبولاً ولا صالحاً بالنسبة اليه ، على الرغم مما يبدو فيه من حجج متزعزعة بعيدة المرمى ..

بهذه الافكار والخواطر خرج اوستين الى الممر الداخلي للدار وتفاهم بالحركات الایمائية مغ قارقارا ، المرأة العانس الضخمة الجسم ، ذات الخمسين عاماً ، التي بقيت هكذا دون ان يرمي لها القدر بالقرين المبتغى . كان اوستين يخلص عنته دائماً بمعاملة تتسم بالاحترام الشجي الاسي . وكان كلما التقاها شجعها قائلاً : « انك ، يا عمتي قار ، تزادين كل يوم شباباً » . وكانت العمة تجيبه في كل مرة - على كلمات المجاملة والاطراء الثابتة هذه ، تجيبه بحزن ضحوك : « من أين !ها

انذا اتفرق شبابيا !»

مدّ أوستين نظرة عطف ودية طويلة الى وجه فارقارا الاسمر الشائخ
ذي الانتفاخات الشحمية ، الذي كان ، مع ذلك ، وجهاً لطيفاً وديعاً
عزيزاً .. ثم ربت برفق على كتفها المستديرة ، وكادت تفلص كالمعتاد من
شفتيه تلك العبارة المشجعة المنشطة للعب ...

- نعم ، نعم ، أوستين ، لقد عدت شابة أنا ، عدت شابة ، وما انذا
ازداد ، اتفرق شباباً بالمرّة ! قالت فارقارا وكأنها قرأت في عينيه افكاره
فهدات بكلماتها الخافتة هذه ما كان يعمل في نفس أوستين من رغبة
ملحة في ان يتكلم ، ان يفرح عمنه بصوته الذي اتبعث من جديد .

وحين لاحظ كوزما دانيلوفيتش كيف وقف أوستين يتململ متردداً
قرب فارقارا ، مسك به على عجل من كوعه ، قائلاً :

- انفكي عنه يا فارقارا ، لا تعيقه ! .. ان ورشته بقيت مفتوحة ..

وحين خرجا وراء الباب معاً ، قال له بصوت خافت :

- حسناً ، فلتذهب الان ، يا بني . ولا تنس ما اتفقنا عليه : الزم
الصمت . وبعد ذلك سيأخذ كل شيء مجراه من تلقاء ذاته .. واذا
اشتقت الى الحديث ، اذا رغبت في ان تلعب لسانك فتعال الى هنا . ان
بيتنا - انظر - قلعة الابواب ودقات الشبابيك مضربة كلها ، محكمة
الغلق بالترابيس ، وان شئت فغن بأعلى صوتك ، من يسمعك ؟ لكن
فارقارا هذه احذرها ! فهي امرأة كتوم ، مكارة ، جسور .. ذات يوم
من ايام الصيف الغائت توقفها هنا سائقون عسكريون . كانوا مارين
عابرين .. فانهمكت ، منذ الوهلة الاولى ، مع واحد منهم ، اجعد
الشعر .. وبعد هذا صار يتردد اليها ، من حين لآخر ، رجل يعمل في

الطاحونة . حسناً ، ما علينا . ان ذلك ، بطبيعة الحال ، امر دنيوي
حياتي معتاد : فالبقرة الهلوك تحب الثور !.. الا انني لست في هذا
الصدد .. هل تعلم ماذا تريد فارقارا هذه ؟ انها تتقرب اوان موتي لكي
تستقر في الدار مالمكة !.. بعد مصرع اندري بوقت قصير راحت
تحدثني :

مادمت ، يعني ، في صحة وعافية فاكتب لي الدار باسمي لكي استطيع
فيما اذا حدث شيء ، ان اسكن فيها بطريقة قانونية مشروعة وشريفة .
يالها ، الى اين تسمى ؟! لم تشيد لم تنضج عرقاً ، تدرجت الى هنا
صعلوكة رثة عزباء ، لا تملك شروى نقيز ، جاءت من بطاطس ارزاماس
الى اراضي الغنية بالقمح . ولم يكفها ! انها تعيش في ركن دانيء مريح
بكل ما توافر فيه من زرع وضرع .. اجل لم يكفها والان ، اكتب لها ، هي
المضخمة الكرش ، المنزل كله باسمها ، القصر هذا المشيد بأجود انواع
الخشب ... لقد وضحت لها عندئذ كل شيء ففي وئام كآخ لاخته . قلت
لها ان لي ما عدا ولدي الشهيد اندري ، ثمة ابناً آخر غالياً حبيباً .. هو
حي معافى ، لكنه الان في الجبهة . انه ولدنا اوستين كوزميتش . زفرت
متبرمة ، ثم اذا بها تقول : آه ، انهم الان قليلون ، اولئك الذين يعودون
احياء من هناك .. هذا صحيح ، انني متفق معك ، ولكن يجب - مع
ذلك - ان ننتظر ، فلعل ولدنا اوستينوشكا يساعد الحظ .. واذا بك ،
ابن الحلال انت ، سرعان ما اعلنت عن حضورك . ومنذ ذلك اليوم
صارت فارقارا ، واقولها صريحة ، لا تهتم بأمور البيت الاناماً ويتوان ،
اصبحت لا تساعدني الا مساعدة متراخية بالقياس الى ما كانت عليه
سابقاً . ولم يعد يعجبها في البيت شيء . هل فهمت ؟ وحاول الان فقط ان

تفتح فمك ، ان تقوه بكلمة واحدة ستكون فارغارا اول من يبلغ عنك ،
يشي بك . نحن وان كنا قريبين الى بعضنا ، ذوي رحم ، غير انه
يستحسن ... يفضل التنحي بعيداً عنها ، عن الخطيئة ! ولكن تعال
افهمك كيف ينبغي لنا ان نتدبر .. نطركوزما دانيلوفيتش متفتتاً حول
نوافذ الدارثم واصل كلامه بإنفعال واضطراب كمن يبیت امرأ أويتامر
سراً نحن سنقلب كل شيء رأساً على عقب . انقل عائلتك اليّ . ما الداعي
لسكنناكم في كوخ من اللبن ، في حين اننا نملك دارسكن ممتازة ، واسعة
خالية ! سنعيش معاً في الفة ووثام .. وسوف ابذل جهدي في ان لا اثقل
عليكم . اما فارغارا فيما انها امرأة وحيدة ، فسوف نتنازل لها عن
الكوخ . سيتسع لها المكان هناك . واذا لم يعجبها فلترحل عائدة الى
ارزلاماس ! .. تعال يا اوستين ، دعنا نقرر هكذا ، ما قولك ها ؟ انا ساجد
راحتي ومستقري وانت سيكون لك العيش ها هنا افضل واسهل ..
سنحيا جنباً الى جنب ، يدفع كل منا عن الآخر ..

في الظل ، عند البوابة ، من الجهة المصاحبة لشجيرات عباد
الشمس ، كان الجومعتدلاً منعشاً ، مفعماً بالنسيم العليل ..
- عد الى الداخل ، يا انتي ، قد ... قبل ان يزكمك تد ... تيار الهواء ،
تكلم اوستين باعياء .

- دعك مني ! لا تشغل نفسك بأمرى ! ولكن اسمع ما يقال لك !
وارتفع مرة أخرى صوت كوزما دانيلوفيتش بصرامته الابوية المعهودة
سالفاً . الا انه وقد لاحظ سيماء النفور والارتباك على وجه ولده .
المشغول البال ، سأل بلباقة يصحبها امل وجل هيباب في اطاعة الابن
اباه ، سألته :

في الجبهة كانت له الحظاته والحقه : يغمز قلبه قرح صبياني لعرب
 حينما يفتح في الخروج مثلاً غافاً عن معركة عنيفة شديدة الخطورة
 للغاية . كان عندها يتهج ، يعجب ذهنياً ، في خياله ، كيف انه استطاع
 ان يحارب هكذا باقدام واقتحام ، ببطولة ويسالة ، بتجاذع وتوفيق ..
 وانه لم يبق الا ان يواجه العدو بعدد من الخيل هذه المعارك الطاحنة
 المدمرة ليصل الامن الى نهايته . فتضع الحرب اوزارها ويحل يوم
 النصر ، يعني تسيبضح حينئذ لجميع الجنود بالعودة الى بيوتهم
 واهليهم . هكذا كان يمني نفسه في الحرب .
 اما الآن ، وقد مضت عدة اشهر على وجوده في مأواه ، فهو مكب
 ايضاً على العمل ، في المزرعة التعاونية . ببطء وبأبعد الاستهلاك
 وبمقاييس زمن الحرب . غير ان تفكيره في الحرب عريض ، جانبي نوعاً
 ما . حال من تلك الاحاسيس والافكار التي كانت عملاً عليه يومياً حياته
 في خندق القتال . الآن ملك يديه كل ما كان يمكن ان يحمله النصر في
 الفضل الاحوال . عاد الى بيته ، يشتغل ويربي طفليه بجواره زوجة
 غنية لطيفة . ان الحرب بالنسبة اليه كانت معها طناً ، غنمية .
 لقد انتهت معوقاً . لهذا المخرج الاضيق ، الذي قطع قهرراً صلته
 الاعتقادية بالناس وعلاقته الطبيعية بالعالم ، اعطاه حقه جزئياً

متكدرًا لعلاقة ما خاصة ، متوازنة - حد المكابدة والمعاناة - بكل ما يكتنفه ويتصل به . حتى الانباء الواردة من الجبهة كان يستقبلها كما الاطفال والشيوخ الواهنين العاجزين ، يتلقاها بالامل الحتمي في العاقبة الموقفة السعيدة لخطر الحرب واهوالها . اي انه اذا حدثت اية تعقيدات او مضاعفات فليس عليه هو واجب انقاذ الآخرين ، بل ان على الآخرين ان يبادروا ساعين الى انقاذه هو بالذات ، كإنسان منكوب ، محروم منبذ عن كثير من مباحج الدنيا ، وغير اهل لان يدافع في الوقت الزاهر عن نفسه .

بيد انه قد اكتشف الان لاسيما بعد حديثه مع والده - انتماء المشروع الى الحرب ، انحيازه كجندي الى المساهمة العسكرية في مثل هذه القضية المقلقة العصبية والمهمة الخطيرة العنيفة التي كان منشغلاً بها ، في مكان ما ناء بعيد ، جميع الشبان الراشدين الاقوياء والرجال الاصحاء الاشداء من سكان قرية كليوجوفا . لا ، انه لم يخش العودة الى ميدان المعركة . فهو حين استجاب لداعي التعبئة منذ الولهة الاولى لاعلان نفير الحرب ، لم تخطر بباله عندئذ اية فكرة ، لم يتبادر الى ذهنه ابداً ان الحرب يمكن ان تضربه ، ان تقنيه ، هو ابن الثلاثين عاماً : هكذا في عنفوان ازدهار سني الرجولة لا سيكون ذلك سوء تدبير لمصير قاس عسوف ، لا يدرك كنهه . لا ، انه يجب ان يكون مصوناً بخالص ما في حوزتها من حرص ربوي ... كان يؤمن ويثق بانصافها وعطفها للذين يكاد ان يكونان خارقين للعادة في تعاملهما معه شخصياً هو الانسان الوديع البسيط ، المولع بالعديد من الحرف والاعمال ، الذي عاش ويعيش على هذه الارض دون ان يضمّر لاحد شرأ او ضغينة ..

وبقي مؤمناً بذلك حتى باغته ذلك الانفجار المهلك الرهيب الذي تركه
اصم ابكم . غير ان ما يربعه - حتى في الوقت الراهن ايضاً - هـوليس
الحرب ذاتها بما فيها من معارك وحملات عسكرية ، بل الحرب
بضراوتها الطائشة العمياء ، ببلادتها الوحشية الشعواء : كل جندي ،
في ايّما لحظة ، يمكن ان يكون ممحياً من الوجود غدرأً وبلا سبب ،
ومدعوأً كغالية^(٨)

« ان المزرعة التعاونية احوج اليك الان ، ورشة الحدادة قائمة على
عاتقك ، مصيرها كله متعلق بك ، تذكر اوستين كلمات والده ، وكان من
المستحيل الان عدم التسليم بها . أجل ان هانكرات سيميونوفيتش
امسى ضعيفاً واهناً للغاية . ليست المشهوخة مسرة .. ثم اترأها كافية
هذه المؤمن والجرايات التي تقدم الى القين في ايامنا هذه ؟ وأطفئ
الكور الان يا اوستين فتعيش متسولة مستعطية - بدون قينها -
كليوچوفكا ، وببد معدودة الى الجيران سيرحل مدير مزرعتها
التعاونية !.. ليس ثمة من بدائل اخرى ، بطبيعة الحال . من الممكن ان
يرسلوا الى هانكرات سيميونوفيتش امرأة ما او غلاماً ما ، كطراقة او
طراق ، لكن هذا معناه ان ورشة الحدادة كلها ستقع على عاتقي العجوز
العليل . اما هو ، اوستين ، فيطرق بالملطاس من الفجر الى الفجر دون
ان يبلى ريقاً او يسحب نفساً ! انه مستعد لان يستهلك ذاته ، كيانه
جميعه حتى نهاية الحرب ، لصالح القضية ثم ان الناس ليسوا كلهم
الان في جبهات القتال ، ثمة من يملك امتيازات معينة او حقوقاً
مضمونة ، وثمة من هم في مؤخرة الجبهة ، قرب اماكن اعمالهم ، ممن

٨ - الغالية : حفرة صغيرة كالخنفساء .

هم أكثر خطراً وأشدّ وقعا على العدو - ومن تراه سيرتكم مخالفة كثيرة
إذا ما قدر بنفسه دون ملائمة أو مياصرة أو منفعة ذاتية إذا وضع نفسه
في موضع تجري منه للناس فائدة عظيمة ويختلف إلى ذلك أنه ليس
قارواً من الجيش - ليس بهارب بل الخدمة العسكرية - ولا حاجة به إلى
أن يتوارى أبداً عن أعين الناس - أما الاعمال فما أوفرها بهذه التحركات
والخواطر المضطربة دخل أوستين ورشة الحدادة - دقّغ إلى الفرن
بعض الفحم - حرك الكيل بحويّة - تأخّضت الجمر بعد الاشتعال - وبعد
لانتظار قصير نثر في الوطيس النافث لهباً عذواً من القصبان الحديدية
المعدّة - وحين بدأ لونها يتورّد واضح يمتلئ منها استنارة للمخالف - أخذ
يتنقل قطع بفعل الضربات - من المعدن المطروق حيث رماذي اللون -
وأوقضت متطايرة شرارات فاعلمة جداً - ظل أوستين يهوي ويهوي
بمطوقته نحوه من سناعة ونصف الساعة - ولما توقفت أو راحة - كان
العرق يقطر من أرجفة اتفه - ذراع ملح كافي يترك مشرباً إلى عبقريته -
أخيراً توقفت عن الطريق ثم خطا - وهو يتهاوى مترنماً نحو المصطنعة
ويش يده في جيب سرواله مستلماً منه الماخوكة - ثم انقلب إلى الخلف
في سائر الخلف يد ومعه لولاعة عاتمة - ثم انقلب إلى الخلف -
- إذن - تكلم بصوت أحش مسجوح بعض الشيء مضجوب نوع من
الاستد علم والتجدي كأنه يسأل شخصاً ما عن نفسه ثم أجاب هو بنفسه
ميتاً لهم بعض الاقتناع والارتياح - «استطيع أن أفتي في الحياة لا
يتفق لكل واحد أن ينضح عرفاً هكذا - (بالله) -
بعد أن أشعل لفاقة التبغ - خارج من البورصة إلى مذهب النسيب -

جلس فوق قرمة من بطن الخيل ، وإذا بوجهه يتحول تلقائياً بصورة
 الغرية ، ووراءه مقلدان تجثمان شعرتا فلورا على ناروا الدوم كانتا الدار
 هذه هي الثروة الرئيسية التي ، وعرها كورمانا انيلو هيفتش على المنطق
 البطولي لسنني كينجور للفلاحي ، رايقه فسيبتا من خشب الصنوبر الذي
 أبتع في بيشكركيا ، ووصف بالصفير الخديث الذي كلفه ثلثه ضياله
 بعض النظر عن سائر المصنوع عليه قد تم بويلالة من فلور عاتية ونية
 وقتلنا عذ الشقيقين لندوي بولونينين والتمها في البيت ، على الرغم من
 المهمة لم يملكنا من ان قديمكا خلفا للدافع الذي تحفه به الى تشييد مثل
 هؤلاء الذين هم كنفيتية بعد فتيان شيد فسيبتا كورمانا انيلو هيفتش

في يوم حفلة التبرك بالسكن الجديد ، راح كورمانا دانيلوفيتش وهو
 يضرب الارضيه الخشبية الخذية الطلاء بدميه ويشكر الجميع على
 مساعدتهم ، راح يتحدث ويتحدث حتى صار واضحا للحاضرين
 جميعا انه لم تكن له اية نوايا مستترة في ان تكون الدار له وحده ، عاش
 دائما مع امنية بسيطة هي ان يترك بعده هذا البيت كهدية واثق من
 بعده ، فعلى الرغم من انه كان يملك يدين عاملين خادقين ، لكنه ظل
 طوال حياته قريبا يسكن في ابنة خشبية مكنته وبيت طيبة محتلة
 ولم يكن ذلك بسبب من كسل أو افعال بل لان الفاقة والضيق كانا
 يجتمان كالسبر على عنقه . ولكن ما ان تنفست المزرعة التعاونية
 الصعداء ، بتجرت ان توافرت الفلال والأموال حتى بدأ ، هو كورمانا
 دانيلوفيتش ، يعلن ، رغم كبر سنه ، عن موهلات متفحة متجالية
 ولدت في الحال في يوم بيلاشا شيبين فريش في بيده فليها انيلو هيفتش

١٠ - القرمة . الجذع المهدب من الشجرة التي يصادق حفرين صرع ليلصقا في بيت

فبيديه الاثنتين ، وعلى مرأى من القرية كلها ، اقام هيكل بناء على درجة من المتانة بحيث يمكن للناس ان يعيشوا فيه مئة عام او تزيد ! من يقطنه ؟ الجميع طبعاً : الابناء والاحفاد . غير ان الدار لم يقطنها على مدى خمس سنوات ، اي قبل بدء الحرب تماماً سوى كوزما دانيلوفيتش مع زوجته العجوز لوجدما . ولم يكن فيها رب بيت بالمعنى ، بل حارساً اجيراً وشغيفاً لا يقر له قرار ولا يهدأ بل ، شغله الشاغل ان يكشف ويثبت في هذا المكان من المسكن ، وان يزخرف ويزين في ذاك المكان منه . بل انه نادراً ما كان يدخل الغرفة الرئيسية للدار : عاش في غرفة المدخل الدافئة الفسيحة ، حيث كان يقاسم قرينته العجوز المأكول والمأوى .. وكان الولدان الشقيقتان يزوران والديهما بنين حين وآخر يتمتعان النظر ، بدون تحفظ ، بالدار التي كان لهما قسط من الجهد في تشييدها . الا انهما لم يبيديا للوالد يوماً اية ادعاءات حتى وهما في نشوة السكر : أولاً ، ان كلاً منهما كان يعيش في غنى او في عوز - في بيته القروي الخاص به : وثانياً ، ان الوالدين لم يساورهما شك في ان الدار ستؤول ، عاجلاً ام اجلاً ، اليهما تلقائياً . وهل ثمة من احد سواهما ؟ ولو خطر للوالد حينئذ ان يدعوهما اليه للعيش معاً في داره لما سمعا راكضين اليه حالاً : لان الحرية والاستقلال عندهما الذ واحل من كل شيء .

لقد غيرت الحرب اشياء كثيرة في حياة كوزما دانيلوفيتش ، خطفت منه ابنه البكر الذي أتى مصرعه على البقية الباقية من حياة زوجته العجوز العليقة . وبعد ان وارى قرينته التراب ، هرم في الحال وصار يتبرم ببيته الجديد وبمزرعته وبالحياة نفسها .

نظر اوستين الى دار والديه الحسنة وراح يفكر فيها وفي نفسه ، لا من وجهة نظره هو ، بل بالفكر ابيه . كانت الافكار هذه اكثر ملاءمة من افكاره الخاصة . وقد تذكر ، مع توجس والده وارتيابه ، العمة فارفارا على الرغم من انها لم تظهر تجاهه اي مقصد سوء على الاطلاق . لكنها الان تهدده ، تنذره بالخطر من غير قصد ، وذلك بمنافستها اياه على البقاء في المسكن ، وبكونها تملك فرصة أوفر لكسب القضية والاستقرار في الدار كمالكة ، فيما اذا عاد اوستين الى الجبهة ثانية .

«لم تشيد ، لم تنضج عرقاً ، تخرجت الى هنا صعلوكة رثة ...» - تذكر اوستين كلمات والده ، ويدت له منصفة تماماً . «ولكن ، كم نضج الوالد عرقاً ، والفقيد اندري ، وأنا !...» وكانت هذه اول مرة ينظر فيها اوستين الى دار والده نظرة محذقة مدققة ، غير مالوفة الى حد ما ، كما لو انه كان يهدف مصوباً نحوها ! ...

يا رجل! لو خرجت مرة على جارتك وزيتها مرة خاطفة في الأقل! اعطها بعض العيون! ان عازقة سلق خنماتي بصدات فضيل فخرتني سكتهاز، وانت لا تسمع لي بالاستحمام في حمامك! اوسنين لينتي استطيع ان استعيرك ليلة واحدة في الاقل! من قرى شيئا الكدمات التي في احضانها اوستينوشكا، بشكل... اياه! مالك تحدي بي هكذا؟ لا تسمعني؟ حسن اذن انك لا تسمع والا كنت نظرت بطريقة اخرى، ربما... ولكن، من اين جاعك هذا الدم الذي قوي عتقك! هناك خلف اذنك؟ هل خدشتها بقطعة خديد؟ هنا اجلس على المصطبة لكي اضمدك بمنديلي...
 اخرجت نيوركا مندليها، وطبته بلعنها وراحت تمرره برفق على رقبة اوسنين. وقفت بين ركبتيه، ضاعطة عليهما ضغطة خفيفة لطيفة مستعانتني^(١١) اساقها اللذتين اللذتين^(١٢).
 تخير اوسنين وتهيب وهو يحس بهذا المش الناعم. لم يسبق له ان لمس نيوركا هكذا عن كثب كما الان. كان يراها كل يوم، يلقيها كجارة. بعض الوقت، وقد الف، كما يبدو، عينيهما الزرقاوين، الا انه كان في اغلب الاحيان يرسل الى قوامها الفتان نظرات تحلل نوعاً من الاعجاب المبهم الخائر الذي يشوبه شعور بالذنب. كانت تفصل بين منزليهما بثرذات شانوف. وسواء كان الطقس مشمساً ام ممطراً ام اذا ربح شمالية قارضة البرد، كانت نيوركا تجري نحو البئر، حاضرة الرأس، لا ترتدي غير ثوب بسيط خفيف، تملا الدولوين ماء وتذلف عبر الممر الضيق، تتلوى لدنة مرة تحت النيوث وكأنها ترقص، متمائلة في

١١ - سماعة الساق بطنها او ريلتها (بالمز الغخذ).

مشيتها . تراها هكذا بكامل هيئتها : حسنة القوام ، خفيفة الحركة ، مستديرة ملفوفة ، بيضاء كراس فجل منظف مغسول !

احتضنت نيوركا ، خفرة هياية ، رأسه بلطف .. ارتد اوستين ارتداداً خفيفاً ضعيفاً ، كأن قد لفحته لمسة صدر نيوركا الذي كان يتنفس تنفساً مضطرباً متقطعاً .

- في احلامي اراك ، اقبلك يا اوستينوشكا ، وانت تلاطفني بعذوبة وحلاوة .. اه ، ما ألذها من ملاطفة ! ليتني اظل هكذا دون ان افيق من نومي !... اصحو فينتهي الحب .. اضطجع مرمضة متوترة ، ملتبهة المشاعروسطوسائد عالية محشوة بالزغب . ولكن ، لماذا ؟... ما حاجتي الى الفراش الناعم الوثير ان لم يكن ثمة من رجل يشاركني الرقاد فيه ؟ كانت نيوركا تتحدث بهمس دافئ كأنها تكلم نفسها - ها انني الارملة بنت السادسة والعشرين ، ماثلة امامك بكل كياني الانثوي .. زوجي فاسيا راقد منذ ثلاث سنوات تحت التراب ، حفظه الله في ملكوته وادخله فسيح جناته ! لم يكن قولها - لطيفاً جداً معي ولكنه على كل حال ، يُعيلي . زارني ، تراءى لي في المنام مرتين : عباس الوجه ، مستغرقاً في التفكير . اما الان ، فانني لم اعد اراه في احلامي .. ايه ، لماذا تنظر الي بلامبالاة ، يا اوستين . شخت انا ، حقاً .. ولكن ما باليد حيلة ، فالحزن لا يمنح المرم الشباب - ان الصدا يأكل الحديد ، اما الحزن فيأكل القلب .. لا ترمقني بنظراتك هكذا ، فأنا يا اوستينوشكا ، اشعر بالخجل .. اه عيناى تخجلان ، اما قلبي فما ابهجه !

في الواقع انه كان من المحرج جداً لاوستين ، بل ومن غير اللائق به ان يجلس معانقاً نيوركا في السديم المعتم للورشة المفتوحة المكشوفة تماماً .

لكن الانكى والاشد ايلاماً من كل ذلك هو شعوره بالرياء الاضطرابي في سلوكه الشخصي : كشفت نيوركا عن دخيلتها كلها امامه ، واثقة بأنه لا يسمعها . اما هو فقد جلس يصغي ملء اذنيه ونيورا امامه كالعارية تماماً .. لقد رأها ذات مرة - هدفه مجردة من ملابسها كان واقفاً خلف الاحراش ، وكانت هي تستحم في البحيرة ولم تنتبه اليه . وهو الان يبدو وكأنه يختلس النظر ويسترق السمع اليها رغم ارادته وبلاوعي منه ! فأحس من ذلك بانحراف في صحته . كما انه شعر بالاسف على نيوركا . لكنه عثر على يديها فكهما عنه وتخلص منهما ثم قام فجأة . وهو يحس الروائح المنعشة الجذابة المنبعثة من شعرها ويديها ، قام من المصطبة وخطا نحو القرن .

توهجت حتى درجة الحرارة البيضاء ، تلك القطعة المعدنية المستقرة في لهيب الجمر . التقطها اوستين بالمقاط ووضعتها فوق السندان .

حين صار التبولت جاهزاً اخذته نيوركا ، ثم سارت وهي تشكر اوستين بعينيها ، سارت صامتة متناقلة نحو المنفذ . وبالقرب من الباب التفتت اليه ، انحنت انحناء خفيفة وقالت :

- سامحني يا اوستين ، لقد ثرثرت كثيراً ... لكنني الهيت النار في قلبي وحسب . فلا تسخط علي : دجاجة جائعة مبررات في منامها دخناً ! ولكن ماذا ينتظر مثيلاتنا الان ، ها ؟

فاهت نيوركا بكل هذا بدون اية اشارات او ايماءات تواكب كلامها ، كما لو انها كانت تعرف ان اوستين يسمعها . وقد اثار ذلك انتباهه وحذره .. وانتقل الى كيانه الداخلي ، كما التيار الهوائي البارد ، سيل

من الخوف والشك : وإذا به يتصرف ، أول مرة في حياته ثموراً مخالفاً طبيعته الحقيقية الواضحة الواقة بالناس ، فينظر فجأة الى نينوركا الطبية البسيطة نظرة ارتياح مصحوبة بالانزعاج ويرغبة ما شديدة في الخلاص منها بابتعادها سريعاً عن نفسه : ودون ان ينظر- (وكم كان يشتهي!) في وجهها المترقب المشوب بممتحة رقيقة من الحزن ، بدأ يهرج على غير انتظار ، يديه تحوها بفضافة تصدبها ضغينة مبهتة سخرية مما يحدث لدى الخضم الختدمين غيظاً. وكافت حركات يديه تصرخ قائلة : «هيا انقلعي» غوري من هنا ! جعداً لك !»

نفلرت نينوركا اليه مرتبكة : «تخسر الاخضرار من وجعيتها تجمعت متكئة على نفسها وكأنها مسمرة من اسفل» ثم راحت تحت الخطى ، معلوبة الى خارج العتبة .

نظرواوسيين الى ظهرها المنحني المتناهي ، جلس في ثقائل على المصطبة ، مستغنياً بأسي من احساسه الحاقد هذا تجاه نينوركا المسكينة البريقة ، ومن ذلك التحول الغامض الذي طرأ على ذاته . في الانتقال نحو ما هو سييء بما لم يسبق له مثيل .

في الاماسي كلن اوستين يعود الى البيت منهوكاً ومتعباً حذ الاغماء
تقريباً ، وجهه قد تضمر وذبل تماماً ، اغبر فهدا وكأنه مغمى بلون زيد
الحديد الرمادي الهامد ، ولكن قل لي ، بريك ، من ذا يدمر نفسه
هكذا ؟
عبرت فزوضيا عن تدهورها ، يدافع الشفقة والحرص على زوجها ، اما
اوستين نفسه فلم يكن يتضايق ابداً من وضعه هذا ، لقد امتصه العمل
كلية ، ولم يترك له الا للقليل من الوقت للتأملات ، التي تخدش النفس
وتقشط القلب ، في ما يتصل بحياته القائمة الان ، بوجه علم ، على
الجهد المضني المتواصل داخل ورشة الحدادة ، وعلى الوقاد القصير
الشبيه بلحظة التدخين الغائبة عن الذاكرة ، وكان الاعياء الجسدي
بالنسبة لاوستين اخف من نوبات الارق التي كانت تنتابه في ليالي السهاد
الطويلة ، وكلما زاد افراطاً في انهاك نفسه بالعمل احس براحة اعظم
وانفراج ارحب في داخله ، ويرغبة اشد في الاستئناس بأولئك الذين
كانوا يترددون على الورشة ،
كان الناس ينقلون اليه نفس الانباء المألوفة ، بالكلمات والاشارات
في ان واحد ، الاشارات له ، والكلمات لانفسهم ، كأنهم لم يكونوا
يرغبون تماماً في ان يقايضوا نفس هذه الاشارات الغريبة وغير المألوفة
في العلاقات الطبيعية ، بتلك الالفاظ البسيطة والمريحة التي افوها ، لم

يكونوا يسمعون لانفسهم بالهيوط الى مستواه هو الشخص الاطرش
المنيع الحريز على الاصوات . وكان اوستين - وهو يدرك ذلك - يحس
احساساً اشد توتراً واعمق عذاباً باستحالة التعويض عن النطق الذي
هو اروع معجزة واغرب اعجوبة في الانسان . أخذ ، وهو ينافع باستمرار
ضد عدوه الداخلي الذي لا يلين ، الا وهو الرغبة في الحديث ، أخذ يطبع
نفسه على العيش صامتاً بالمرة . غير ان هذه الرغبة كانت ، في بعض
الاحيان على درجة من القوة واللاكبح تجعله يبرح الى مكان ما بعيد في
اعماق الغابة فيتحدث - متلجلاً تلجلاً شنيعاً - بصوت عال ، مع
نفسه او مع الحصان ، ويرفع عقيرته منشداً اغانيه المفضلة التي كانت
شائعة قبل الحرب .

وكان يجد الطمأنينة والمتنس في علاقته الصامتة بالجد بانكرات .
صحيح ان بانكرات كان ينطلق احياناً في احاديثه ، الا انه لم يكن
يتحدث ، على ما يبدو ، معه . هو اوستين ، بل مع السندان ، مع قطع
الحديد ، مع جميع ادوات الحدادة الصامتة الصماء ، وان كان
يفترض عن قناعة غريبة انه اذا كان اوستين قربه ، جبيناً لجبين ، يعمل
يتأوه ، يعطس ، يبتسم .. فهذا يعني انه يجب ان يدرك احاديثه بكيانه
الخي كله ، لا سيما وان كلمات بانكرات كانت مسرة مبهجة دائماً ،
سواء بالنسبة اليه هو ذاته او بالنسبة لاوستين :

- لا بأس ، اوستين . المهم هو ان لا نستسلم ، ان لا نُضرب من
تحت . يضعف الانسان وعندئذ هو ارق من الماء ، يتقوى فاذا به اصلد
من الصخر اي نعم . ليس ثمة من شيء في الدنيا يوجد بهيئة جاهزة ، بما
في ذلك المعدن الفلز ، لناخذ الفولاذ مثلاً .. فهو ليس سوى حديد

صلب ، مقش : لقد مزّ بالتقسية واجتاز السقي وحصل على بعض الإضافات من خلائط معدنية أخرى مكمله .. وكذلك الناس . فنحن نبدو كلنا من عجينة واحدة ، من الطينة ذاتها ، لكننا لسنا جميعاً متساوين في المتانة والمناعة والرسوخ : لكل صلابته ، سقيه الخاص ...

بأشر القينان في هذا اليوم عملية اللحام ، لقد وطدا عزمهما على ان يدخلأ في حيز العمل جميع القراضة من قطع الحديد العتيقة المستعملة التي حصل مدير المزرعة التعاونية عليها في المحطة . كان بانكرات ، منذ اول الصباح ، صارماً صامتاً ، ينبش باهتمام في ركام قطع الحديد التي جلبت الى الورشة ، باحثاً عن الخامات الصالحة للحام . بعد ذلك طلب من أوستين ان يحجز من الداخل نافذة الورشة بلوح من الخشب الرقائقي للحيلولة دون نفاذ النور . وفي الظلام بدأ يحدد ، بحك المعادن على الشرر ، نوع المعدن المفحوص وعلامته . فعل ذلك ببساطة: كان يأخذ السبيكة المعدنية ، يدنيه من عجلة صنفرة في حالة دوران . فكانت تضرب ارضية الورشة - في تلك اللحظة ذاتها - حزمة صغيرة من الشرر الساطع كالنجوم . ووفقاً لالوان المعادن اطوالها واشكالها ، كان بانكرات يعرف الكثير عن عوائد وخواص هذا المعدن او ذاك .

- سليكونية .. لا بأس بها للزئبركات والنوابض . الصلابة ضئيلة ، لكن ما العمل ؟ نحى بانكرات وكان قد طمأن نفسه بصوته المسموع جهاراً ، نحى جانباً قطعة الحديد المفحوصة التي قطع الصنفرة قبل قليل عنها خزيئات الشرر الساطعة الاصفراء . كانت الشرارات تظهر بالوان مختلفة : تارة حمراء غامقة ، واخرى بنفسجية ، وثالثة بيضاء ... وقد

يحدث لعبة الألوان هدم كائن لانهاية لها . بيد ان الجداد المعجوز المحنك
 نيسق بحويية قطع الحديد . هتذكراً كلاً منها . تبعاً لخواصها الطرية
 وعشى نحو الكبريت . يهتدق قشورها زاهية . فاسرع
 فاجترق الفحم جيداً . اشار بانكرات براسه الى اوستين . فاسرع
 هذا يدس الحاجات الثقيلة الوزن داخل النار ، ذاراً عليها كمية اضافية
 من الفحم . بعدئذ اخذ بانكرات يمشى ، متربحاً بجينة وذهاباً بمحاذاة
 الفرن . اما اوستين فراح يدخل في ناحية اخرى ، مقتظراً الاوامر .
 ويرعان ما غمزه بانكرات ميتسياً وقام بصركة واضحة مفهومة ان
 تعال انظرن واعرف بنفسك ما جديدة هي حرارة اللجام ، الم يحن الوقت
 لسحب المواد المطرقة . اما ان اواند البدء بالعمل ؟

خطا اوستين نحو الكون وخلق للنظر مضيقاً عينييه في قطع الخزين
 المتوهجة الشبيهة بكل مستديرة من الجمر الارجواني التي درجت
 تتجرك فوقها شراشات بيض مزرقة والسنة من نيران تكاد تكون عديمة
 اللون ، دلت جميعها على ان حرارة اللجام قد بلغت مداها ، غير انه لما
 يحن الوقت بعد لاجراج المعدن من النار . كان من المهم ، حفاظاً على
 درجة الحرارة ، ان يوقف مؤقتاً التشغيل المعدن ففسينه ، لتفادي
 الاحراق المفرط او الكلي الذي قد يؤدي الى اتلاف الخزين من المادة
 المعدنية . وهنا جاء دور الرمل الناعم الذي جلبه اوستين من النهر
 سيلفاً . مال مغلياً المواد المخزونة ، التي كانت تبالا مطلقاً الشرر ،
 بطبقة متساوية من الصهور الذي تحوّل فوراً الى خبث شبيه بالزجاج ،
 منقوذاً الخزين من التأكسد . وبعد فترة انتظار وجيزة ، انتشل اوستين
 من الفرن بالمقاطب شظية من محور عجلة ، وضعها على السندان ذي

القرنين ، تناول من فوق عارضة الأدوات ازميلاً كبيراً قدمه الى
 بانكرات ، وكأنه في واقع الحال - يقول له : المحور سوف تلحمه اجزاء ،
 قطعاً قطعاً ..

- احسنت يا اوستين ! ارى انك الان من المرجح قادر على توجيه دفعة
 الامور بدون وجودي - كالم بانكرات نفبه بضوئ عال ، ياخذاه ذقنه ،
 في حين ارى اوستين قبضته المضخمة للسوء اعمن اثر الفحم ، بايهاضها
 البارز يفرح الى اعلى ..
 بقايا ، حتى الغدا تماماً ، يلعبان سماعات وحلقات مختلفة ،
 مجاور عجالات ، سلك معاريفه .. اكما انهما راحا يدقان ويشدان
 الاطواق والاحزمة المعدنية المسخنة على العجلات وعرائش المركبات
 الخشبية ، فيخذلت تعوم في الورش رائحة غثة لم يتسن لها ان تتعرض
 للجوفيمتصها ويغزيبها تلك هي رائحة الحديد الجاهي لدرجة
 الاحمرار . كما اخذ ينتشر ايضاً دفاً^(١) غاز الفحم الخانق ، المتبعثر مع
 بخار زبد الحديد وبخاخه المتصاعين .
 شرع اوستين يحمل ناقلاً وحده - حفاظاً على العجوز بانكرات -
 جميع الاشياء الثقيلة على بطنه ، فتصيب جسمه عرقاً وصار يلمع من
 اثر النتج .. ويرغان ما غدا يشبه بالوقاد الحقيقي منه بالحداد !

.....

عند الغداء ، حينما نشركل من بانكرات واوستين زادهما البيتي ، اقتربت من الورشة سيارة البيكاب وهي تتصعب وحلاً . وفي اللحظة ذاتها حجت جثة فيودور بريديخين الضخمة المربع الشمسي لفتحة باب الحافلة . في اثر السائق راح يجمع^(١٦) في مشيته رجل ضئيل الجسم ، قصير القامة ، ذو ساق خشبية ، هو محاسب المزرعة التعاونية . كوستيوشكا .

- السلام عليكم ، معشر الحدادين ! ادى بريديخين التحية بصوت جهوري وراح يتمشى على ارضية الورشة الترابية متخذاً مظهر من قدم لكي يعطي الاوامر .

رد عليه بانكرات ، وهو يزيل القشرة عن قطعة من البطاطس المسلوقة ، رد عليه بايماء خفيفة من رأسه ، ثم اشاح بوجهه عنه نحو منضدة الطعام .

- ارى ان زادكم رديء ، ايها الاخوة الطراقون! من الفجل البري الحار ... ترى الى اين ينظر مدير مزرعتنا التعاونية ، كيف يفكر؟! لم لا يلتفت الى هذا؟ ... اسمع يا كوستيوشكا ! بلغ فاسيتين حالاً ان يخصم للحدادين ارزاقاً اضافية! ... دوى باهتمام صوت

١٣ - يجمع: يطلع (يعرج).

بريديخين ، غير ان في نظرائه وفي حركاته كانت تبدو نفس تلك الوقاحة المرحية ونفس ذلك الزهو اللعوب المألوف الذي كان يصفاه معه ، هوسائق السيارة الوحيدة في المزرعة التعاونية كلها ، كلما عرج على ورشة الحدادين وكانت له ، اضافة الى ذلك عادة سيئة هي انه يتسلل الى جميع زوايا الورشة ؛ يخطف ادوات الحدادة دونما اذن ، يضايق الحدادين بنصائحه ، الامر الذي كان يغيظ بانكرات الى ابعد حد . وكان ينشأ في الورشة بفعل صوت بريديخين الملعع وضحكته القاصفة ... وبسبب من جسده الكبير الحجم والكثير الحركة كان ينشأ نوع من التشويش الصاخب والاضطراب المخل بالنظام داخل الورشة .

- باختصار، ما الغاية من مجيئك ؟ موقفاً بريديخين المهذار عند حده ، سألته بانكرات بصرامة ..

- الزنبركات ، هلا عملتها للعربة المقطورة بشكل من الاشكال ، وبسرعة ... افاننا لا نستطيع الانتظار بأية حال . يوم السبت علينا ان نرحل الى المحطة لجلب الفحم - واخرج بريديخين ، اثناء كلامه هذا ، من جيب بنطاله كيس ثبغ نثر منه حوالي نصف ماخوركاً على المنضدة ، امام بانكرات . صنع ذلك بروح المساومة ، لا بدافع التخفيف عن الحدادين ، كلا ابدأ . بل بالاحرى بدافع العطف عليهما : الطعام هزيل ، فلتدخنا في الاقل كما يروقكما !

- لا نستطيع، بأية حال من الاحوال ، تلبية الطلبات المستعجلة للغاية . امامنا الادوات الزراعية هي الان في المرتبة الاولى - شرع الجد بانكرات يوضح له الامر بهدوء وبصوت خافت ، دون ان ينظر الى تبغ الماخوركاً - مدير المزرعة التعاونية نفسه قال ذلك ، كلفنا ، اصدر

تعليماته

- جميعنا نقول ، لكن لا يجري كل شيء طبقاً لما يقال . - لم يكن على وجه

بريديخين ذي العظمين الوجدنين البارزين والحاجبين الاسوديين

والعينين الكستنائيتين المتقدتين الجامحتين . - لم يكن ثمة أي ظل من

كدر . - على العكس ، فبعد أن طرق سمعه جواب الرفض صار أكثر مرحاً

من قبل ، رمى سترته من على كتفه وتهيأ للعمل - اللسان يتكلم أما

اليدان فتفعلان . نحن الآن سريعاً بأربعتنا . نحن ليس الزنبركات

وحسب بل وحتى الشيطان يستطيع أن نصنعه بالطرق . أنا شخصياً بي

رغبة شديدة في أن ألوح بالملطاس ... أه ، أين هو ، ذاك الذي يليق

بمنكبي ؟! أيها العم بابتكرات الالهيا ، قم وجهنا

- كفك عبتاً وتشويشاً . عندك سيارة البيكاب ، وتستطيع أن تصدر

اليها أوامرك ، أما نحن فلا نثرم على رؤوسنا بصلاً . ولا تلعب معنا لعبة

النطة ، دعنا من هلسك^(١) وترهاتك - ترك بابتكرات متصدة الأكل ،

نافضاً القنات من منزله . وسحب الملطاس من يد بريديخين .

- فلنذهب ! - بصوت خافت ولهجة متأثرة تكلم كوستيوشكا

المحاسب وهو يلوح بيده يائساً . وقد كان حتى هذا الحين يستمع ساكناً

إلى ما دار من حديث

- فلنرحل . - وسنعمل نحن الزنبركات - تقدم بريديخين مقترناً من

ركام الحديد ، تنشق قطعتين صدئتين من ألواح الصلب . ها ، بإمكاننا

الآن أن تفصل زنبركين

١٤ - الهلسك - الكلام الفارغ (الفو - هرام)

- أسمع ، أنت لا تتصرف تصرف الأسياد المالكيين ، أي نعم أنت أنظر بعينيك ولا تلمس بيديك . ما أدراك لمن يعود هذا المحزون ؟ - صرخ بانكرات مفتاحاً وشحبت وجهه ذو اللحية التي اشتهلت شيباً . - ترى من أجل ماذا كرموك ، أنت الوقع الصراخ أصحاب ، توط التفتاحة هذا ؟ -

- هكذا ، من أجل خدجرتي كرمت ؟ - تكلم بريديخين بقرحة عاصفة ومسح بكفه وسامته الذي راح يتدفى ، وحيداً يتيماً ، على قميصه الملتصق بزيت المحركات .

بيد أن بريديخين الذي بقي وانثا بنفسه ثقة لا تترعرع ، قرر أن لا يتعجل الأحداث . لن يؤخذ الجذ بانكرات بالوقاحة . رمى بريديخين قطعتي المعدن من يده ، جلس على المصطبة إلى جانب أوسنين ، مد إليه الجريدة وهيئ الماخوركا .

- هكذا إذن ؟ من المرجح أن الأمرفد أصيب بالصمم من صوته ، ولكن يتخلص منك . - رفع بانكرات قطعتي المعدن من الأرض وأعادتهما إلى مكانهما السابق .

- وانت أيضاً تعالٍ اجلس نحن معنا ، أيها العم بانكرات ، أم أنك تنفرد متى أنا المطارب القديم الموق . ها ؟ - قاله بريديخين سيكارة . لك ، جاهرة تظن بانكرات إلى التوط ثم إلى يد بريديخين اليسرى . لاح ظاهر الكف ، بلونة اللوردي ، مضغوفاً من أثر لفحات الحريق . أما أصبعا الإبهام والسبابة فقد تشابكا معاً وكانهما يشيران إلى «في» تافه ، لا يعتقد به ، وبقيتا معقودين ، ملتويين هكذا . كان يعلم أن ليس ثمة أي خدش آخر غير هذا على بدن بريديخين الهائل الضخم . لكنهم لم يعودوا

بحاجة الى الاحتفاظ بمثل هذا الجندي في صفوف القوات المسلحة ،
فسرحوه وصرفوه الى اهله . لكن يد بريديخين المصابة هذه لم تمنعه من
ان يدير مقود السيارة من ان يكون مرحباً الى ابعد حد ، وان يبدو
محظوظاً وسليطاً وقحاً ، قليل الحياء ...

- أه ، ياله من مكار ! يستدرجك بسهولة ويتسلل الى نفسك على
هواه ، بلا صابون ! - وجه بانكرات كلامه لاثماً مؤنباً وهو يتقبل من
بريديخين سيكارة اللف - هكذا اذن ، تقول انهم من اجل حنجرتك
كرموك ؟ هل كنت تغني بصوت عال في الحفلات الموسيقية ؟

- كلا ، انا لا اجيد الغناء . لم يهيني الله اذناً موسيقية . الامر
مختلف تماماً . - ضيق بريديخين عينيه الكستنائيتي اللون ، ظهرت على
محياء الجميل ابتسامة رجل محنك يعيش حياة موفقة محظوظة ، كأنه
معوّذ ، بلا ريب ، من الضنك والسجن والرصاص - ذلك هو انني ...
كنت اقوم ذات مرة بنوبة الحراسة في الكتبية . وفجأة قدم الى الثكنة
الرائد چيكاسوف . فوقفت امامه كالعادة طبعاً ، مشدوداً كالوتر
وزارت بأعلى صوتي : « كتيبة ... بية ، إن شاء الله ، به ! »
ارتد بانكرات عن بريديخين وسد أذنيه براحتيه .

سثم قدمت تقريرري الى الرائد مباشرة . واصل بريديخين حديثه وهو
يققه ضاحكاً بصوت عال . وكذا ، قلت ، وكذا : اثناء فترة الحراسة لم
تحصل اية حوادث . الجنود يتأهبون للغداء . اصدر الرائد امره :
« استرخ ! » ثم انصرف . الا ان صوته كان ناعماً رخيماً ، لا يصلح
للحياة العسكرية ، ملانم جداً لمغازلة الفتيات تحت ضوء القمر ... في
حين كان عددنا في الكتبية يزيد على مئة فحل من الفحول الفتية القوية

التي على شاكلتي . كنا جميعاً من المجندين الجدد ، يجري تدريبنا عشر ساعات يومياً في ساحة العرض وميدان الرمي . كانوا يخضوننا خضاً عنيفاً بحيث اننا لم نكن نستطيع ان ننتزع في الصباح انفسنا من الفراش . ترى العرفاء يتراخسون ، يتصايحون . لكن الامر يظل كما هو : تقلقل وارتيابك اثناء الاستيقاظ ... وهنا خطرت على بال الرائد . ثم سارت الامور فيما بعد على الوجه الاتي : في الصباح الباكر يوقظني الجندي الخافر من النوم قبل الاخرين . ارتدي ملابس العسكرية ، اخرج الى وسط الكتلة واطلق ، بنيرة امرة ، صيحة عالية صخابة ... هكذا : « كتيب .. ب .. بة ... » فيرتج زجاج النوافذ وتنفث الهوائيات واذا بالفتيان كأن ريحاً اخذت تهوي بهم من اسرهم . ثم تراهم ، وهم يغمغمون ، يقولون لي مازحين : ليس صوتاً هذا الذي عندك ، يا فيديايل هو هزيم رعد سماوي ، قذيفة مدفع هوتزد . مزحت ام لم تمزح ، لكن المهم هو ان النظام والظبط قد تعززا في الكتيبة .. وسرعان ما صدرت الاوامر بالتوجه نحو الجبهة كانت رحلتنا طويلة . حط بنا القطار عند احدى المحطات الصغيرة . ما ان تخلصنا من تفريغ حمولتنا حتى اخذت طائراتهم تداهمنا ... كانت تطلق على ارتفاع واطىء ، تمطر من مدافعها الرشاشة على المسطوح مباشرة ، وتسقط قنابلها ... ايه ! لقد بدأت ... الجنود الشبان اليافعون ، الذين لم يكونوا قد تنشقوا رائحة البارود بعد ، منهم من تواروا مختبئين تحت المدافع ، ومنهم من راخوا يتحركون بسرعة جبنة وذهاباً تحت عربات القطار . نظرت واذا بالرائد چيكاسوف راح يجري مسرعاً بمحاذاة سدة سكة الحديد ، معطفه العسكري كان ينبعث منه

نحو القرن مستعدياً لأنها عمل -
 - اعجب اوستين بالطريقة التي تحدث فيها بريديخين عن الواسطتين
 هكذا ببساطة وبدون تبجح او مباهاة - اعتد سماعك حديثه تشعر بان
 النوط جاءه بسهولة وبدون مقابل تماماً
 وفي الحقيقة انه لم ينله - طبعاً - من اجل حنجرته وحسب - الا انه لم
 يمهو الحديث - ولم يزخرف شيئاً - مع انه كان بإمكانه ان يفعل ذلك -
 كما هو شأنه دائماً - هكذا ينال الضبط في غالب الاحيان - حيث يكذب
 ويكذب بدون ايما خجل - كل حكاية - كما قالوا جفيلة عند الزخرفة
 والمبالاة - اجل كان بإمكانه ان يخترع بلسانه مثل هذا ومنعه منبر دامع
 هو نوط الشجاعة - كان بإمكانه ان يصنع من نفسه بطلاً أو أي بطل -
 لكنه في واقع الحال - أي ذلك - بل وفعل العكس ايضاً حتى بسط هذه
 الحكاية برمتها ولخصها بالصرح والنوط ولم يكن هذا شبيهاً
 بريديخين - كما انه لم يكن مفهوماً بالنسبة لاوستين -
 في غضون ذلك ضرب بريديخين - غير متفطن أولئ بضعه بانكرات
 المعدن المطروق - ما به ضرب بلهفة على السند لين وكانت يستحق
 القيتين - وظهر من جديد في نظراته ومركاته صلفه وغورنوقسان -
 فادرك اوستين فجأة ان بريديخين وهو يتحدث متبسطاً عن التكريم
 الذي ناله بنوط الشجاعة كأنما - يعلمها يدركان - هما القيتان الشديدا
 المراس - . . . ليس له - هو شديداً - فضل ذو شأن في استحقاقه هذه
 المكافاة - بل ليس شمة أي فضل بالمرء - وكل ما في الامر هو ان فيودور
 بريديخين هذا شخص محظوظ جداً موفق دائماً وانفسا - هل - يوجس
 الحرب نفسها استطاع ان يخرج منها - كالأوزة من الماء - دون ان يما

ضرر . وان لا جدوى من الحؤول بينه وبين ما يريد : فهمهما حاول
پانكرات ، مثلاً ، ان يصرويعاند فان كل شيء ينتهي طبعاً ، كما يشتهي
هو ، بريديخين وبطريقته الخاصة .

لم يمض الا اقل من نصف ساعة حتى بدأ بريديخين ينضج عرقاً .
نفدت قواه ، فرمى اللطاس جانباً وجلس على المصطبة يدخن .

- اي ، جعجة بلا طحين هيكل كبير ونفع صغير ! - قال پانكرات
متحرشاً ، انظر الى اوستين ، انه يطرق باللطاس عشر ساعات في اليوم .
- كوستيا ، هيا خذ مكاني - صاح بريديخين بلهجة أمره .

سار كوستيوشكا بخطى متناقلة نحو السندان ، قبض بجرأة على
اللطاس ، لكن هذا سرعان ما غدا في يديه الهزليتين الضئيلتين ضغماً
وثقلاً حدّ الاقراط . بيد ان كوستيوشكا الذي اجهد نفسه جهداً
باهظاً استطاع اخيراً أن يلوح بالمطربة وهويوشك ان يخلق معها . كانت
ضرباته واهنة وطائشة والأهم من هاتين انها كانت خطيرة بالنسبة
للمسكين كوستيوشكا ذاته : وجهه العصفوري المديب عظمي الوجنتين ،
غدا احمر ارجوانياً مضرجاً بالزرقة ، اما جبينه فقد شدّ كله باوتار
عضلية منتفخة مقومة .. ولم يطل اوستين التفكير ، انزع منه اللطاس
وانتصب هو نفسه امام السندان .

- ايه ، لقد سار العمل وطاب . كلمة واحدة هي اوستين !.. اجل ،
وليس سوى اوستين !.. هتف پانكرات بسرور متوهجاً صوب بريديخين
ودس بالمقاط قطعة حديد متوهجة حمراء تحت مطربة اوستين المحكمة
الصارمة القوية ...

انك امرؤ رائع يا اوستين!.. تكلم بريديخين ، مهمهما ، عندما جلسوا جميعاً لفترة استراحة وتدخين قصيرة هز اوستين رأسه وعلى شفثيه ابتسامة متسائلة .

- اقول انك امرؤ رائع ، ما دامت تحتك امرأة من الطراز الاول .. -
قال بريديخين ذلك ملمحاً تلميحاً غامضاً غير مفهوم .

- لماذا ترمي دبائيسك على رجل اطرش ؟ اهرش لسانك معي ان شئت ذلك .. ما الرديء في فروسيابنظرك ؟ - دمددم بانكرات متذمراً .
- ولكنني اقول مؤكداً : انها انثى من فصيلة نادرة اصيلة . اين منها زوجتي دوسينكا !..

- اي نعم . في زوجات الاخرين يودع الشيطان ملاعق من غسل ، فهن الافضل دائماً - مزح بانكرات مؤذناً بريديخين ، وطلب بايماء منه الى اوستين ان يقدر الصلب اللازم للعربة المقطورة . فرمى اوستين عقب سيكارته في الوجاق وتنحى صوب الركن المعتم ، حيث كانت تستقر قطع من صفائح الصلب .

- بالضبط ما قلت هو الحقيقة بعينها .. كانت لي ذات مرة معها ، مع فروسينكا مناوشة ، يعني بعبارة اخرى ، محاولة جس نبض .. استكشاف بالقوة . اجل ، - واصل بريديخين حديثه وقد اكتسب وجهه مرة اخرى ، ملامح الرجل المحتك المحظوظ الى ابعد حد . - يالها من

مناوشة !لا اوقعك الله في مثلها !... آه لو كانت اذنا اوستين تسمعان
الان كلماتي .. فلنت اذن من ملطاسه ما ينبغي لي ان اتال .. وانه لامر
مشروع بدون شك .

- دع اذني اوستين وشأنهما هو أصم ، غير انني حاد السمع .وبما
انك بدأت تدع: مثل اي كلب ذكر فخير لك اذن ان لا تهرف اكثر مما
هرفت ^(٩٩) عَضَّ على لسانك .فهو لا يجري عليه اي شيء حسن ابداً ، اما
الفواحش والقبائح ، فحدث ولا حرج ... - تكلم بانكرات مندداً وفي
الوقت ذاته مغتفراً متشفعاً... ولكي يضيق الخناق على بيريدبخين
اضاف قائلاً :-

وما دام الامر قد جرى في هذا المجري فحدثنا اولاً كيف تلاطف امرأتك
دوسيا بلغمات قبضتلك .

- في الحمام ، بالمقبة ؟وضح بيريدبخين ملطفاً الكلام بابتسامة ...
نعم !... اما القبضتان فكيف تطاوعتي نفسي ان اطلق لهما
العنان ؟ اهاك انظري اليهما ، يا لهما !.. أرض بهما حتى الموت في لحظة .
لا ، ايها العم بانكرات ، انا بالنساء ، بنسائنا اللطيفات الرقيقات ،مولع
ابداً ، عالق يشريط جذ قصير .اي نعم .مهما حدث في الكون - حرب
هناك ام سلم يتظل النساء لدي في المرتبة الاولى من مجال اهتمامي .انا
حتى في الجبهة ...

- يتحدث وكأنه كان في الجبهة حقاً ...

- كنت ام لم اكن
- لكن راحة البايود شممئها .

٩٤

ولا تظن أن الحرب تشكل عقبة أمام الرجل فلما تم القدر يقسم له سؤالا
تفك حائرا أمام رزق يعطه الله اليك بما كرمنا حدث علي بن ابي الخريص لما
قبل الأخير فقلتني إلى المشتقي العسكري مشغولي اليد بفعله عطية
القصف الجوي اياها . كان حمام المدينة يقع على مقربة من المشتقي
عبر سور صغير وكان الجرحى الذين يكملونهم للوقوف على
أقدامهم ، يذهبون كل يوم سبكت فلا تلتصقهم هناك . أما أنا فقد كنت
معاين تماما ، قتل عمود التفرقة . عدد من كفي اليسرى كانت لا تامل
الضما . ارتدني قهار الطلقة ثم أسرع إلى الضمام بحيث إلى بالجلد
اوصال اصابعي . تنقية كتيرة الطين الجراح ، مما إلى حلت ضويفة
الاستراحة حتى وجدني ذات العريكة ذهابا ويا بة به تلصص
تجسبنا ذراع اليتيم وذات الشخال . واذ بهما ، عتلاوا الضمام ،
هالكا . سوره تكثر لهم الغيوم وتحقق الالباب . جوفون بالي وأحالة
شبه . القنا . كان اسمها ليوبا . مستكة ملفوفة بحطة الطول . فاستشهد
زوجها في الشهر الأول من الحرب بقيت مع ابنتها ذات ست السنوات
وشقيقة زوجها العيلة . أما هي فامرأة كبر ، ودية ، صبور . تقول
لليلة استكني فتسكين . المصائب لا تقاضيهما بل اصبر
عليها . تحملها . وسوف يكون كل شي ومشيئة الله عمل ما يرام . رويدا
رويدا . تكلم في . يعني ، امرأة ذات عقل وارادة بشوشة
لطيفة مهنهة نظيفة . وصرت اتردي كثيرا على ذلك الضمام كنت
مستعدا لان امكث فيه اليوم بطوله . رويدا رويدا .
- ودوسيا المسكينة كانت هنا تترضض ، تصنع المسحيل .

اللحمة عن فمها لتبعث بالزخم الى المستشفى ،باذلة جهدها في ان يعود زوجها الجريح الى البيت معافى مشافى ببأسرع وقت ممكن . اما هو ،تأله !..لقد عثر على حمام اضحك بانكرات متقرزاً ،ضحكة ساخرة .

-ودار بيننا غرام ما بعده من غرام !واصل بريريديخين حديثه معبراً بوجهه عن الم لذيد..-تمنت ليوبيا ان اكون لها الى الابد . حملت مني جنيناً كانت تقول لي : ساكون بانتظارك حين تعود من الجبهة ... ولعلها ،هي الغالية ،تنتظرنني ،تترقب الان عودتي . وهكذا .. انك ، انت نفسك ،لا تدري اين يلقاك الحب . يا حبيب ...!

-واي حب هذا الذي تتحدث عنه ! وعدت المرأة بمختلف الوعود ،استمتعت بها رداً من الزمن ، استغدت منها ثم وليت عنها هارباً . كالكهر في شهر اذار ،تقو ! - نهض بانكرات منفعلا ، لبس قفاز العدادة ، خطا نحو الكور ، لمس باللقاط قطع الحديد الضاربة الى العمرة في داخل الفرن . لما تكن قد بلغت بعد مستوى الحمى القابل للطرق هز المنفاخ بعض الوقت ،ضاعف الحرارة ثم عاد ثانية للجلوس على المصطبة : كان يجب الانتظار عشر دقائق اخرى .

-لم أعدها بشيء . لقد جرى كل شيء لي وفاق ورضه .- تكلم بريريديخين ،غامزاً بعينه شخصاً ما..-دقات المرأة ،اشفقت عليها . - اما كيف اشفقت عليها !كان يعيش في كنفها فمان فوهبتها فمأثالثا .ثم شمعت الخيط ، مطلقاً ساقيك للريح . نظر بانكرات عابساً متجهماً الى بريريديخين - اشفق عليها .. ظل الباشق يقبل الدجاجة حتى ريشتها الاخيرة !

- ولكن .. لم يكن الدب محققاً في أكله البقرة ولم تكن البقرة محقة في ذهابها الى الغابة . - تكلم بريديخين مهذباً ثم وضع يده على كتف بانكرات - عليك ان تعيش الحياة كما هي ، لا تطلب منها اكثر مما تعطيك ! ..

«شبكةها فانجذبت مرمية امامي

لكنني اطلقتها؛ ما ناسبت مقامي !»

- لكن فيروسيا ، في حساباتي، هي التي انطلقت، ولست انت الذي اطلقتها . فما قولك . ؟ بصوت مستعطف رفيع ذي خنة ، شرع يتكلم كوستيوشكا المحاسب الكتوم الصموت . لكنه ما ان اصطدم بنظرة من مقلتي اوستين المذمعتين من عتمة احدى زوايا الورشة حتى خرس لسانه عن النطق ، بل وجحد من فزع ؟ وقد لاحظ بريديخين ايضاً ما يشبه شيئاً مريباً في تصرف اوستين فراح يتطلع الى وجهه بتشبهت وحب استطلاع ، كأنه يتفحص ، متفقداً ان كان الرجل مصاباً بالصمم حقاً ام لا .

- ما كان ، كان - تنهد بريديخين ملتزماً الصمت .

- يعني هل ناسبت المقام ؟ ... ها - ها - ها تكلم كوستيوشكا بصوت انشوي ناعم اغن ، ثم اخذ يضحك بارتياح . وسرعان ما غدا في نظر اوستين شخصاً قذراً حقيراً وسافلاً خسيساً ، الى حد لا يقبل الصفح . كان كتلة كبيرة من الجمر ضربت اوستين في رأسه . بدأت تمر امام عينيه ، مروراً مسرعاً مضجراً ، بذرات رمادية غبراء . وبدأ جسده ، كيانه كله ، كما لو ان الامل شديدة مبرحة ساخنة قد نفذت اليه نفاذاً ... كانت كلمات كوستيوشكا هذه البسيطة في ظاهرها ، الفظيعة

المفرزة بما تنطوي عليه من دلالات ، كانت هذه الكلمات ذات احياءات وقحة وسمجة للغاية . لقد عاش اوستين معانياً ، ذات مرة ، ما يشبه هذا الاحساس يوم خيطوا له في كتيبة الاسعاف الطبية ، قصبة انفه الممرقة المخروقة . جرى ذلك بسرعة وفظاظة ومن دون حقنة تخدير : لاح المخيط واننذ وكأنه حربة نارية ذات شخصخة ثاقبة تخترق الراس اختراقاً .

- دع الغازك واحاجيك جانباً ...! تحدث عما تريد كما هوكدون ابهام . بدأت اذن وأصل حتى النهاية . لا تبذر بذور النمام والاقاويل عبر حكاياتك المتقطعات ... هاك انظر الى امين الصندوق ذاك المنفق الافاك ، ذي الساق الخشبية العرجاء كيف راح يهلس ، كاشفاً عن تكشيرة خبيثة ... وجه بانكرات نحو كوستيوشكا نظرة عابسة متوعدة عنيفة . لسوف تكمل تكشيرتك البشعة ... فالضحكة الخبيثة تضرس الاسنان .

- نعم ، ولكن عم تريدني ان اتحدث ، ايها العم بانكرات ؟ اجاب بريديخين ، متسائلاً بسذاجة ولطف ، غير مخف - مع ذلك - ابتسامة شيطانية مأكرة - لقد عدت بخفي حنين ، تركتني وانفي هذه الفروسيا الملعونة وكما يقول المثل : مشي يبحث عن الصوف ، رجع وشعر رأسه مفتوف .

- الى اين مشيت ؟! ضغط بانكرات كلماته بقوة وقد استبد به الضجر والكدر : بدأت تزعجه مداعبات بريديخين السخيفة .

- ما مشيت ، بل ركبت .. حسناً هل تذكر يوم رحلنا في الربيع انا وفروسيا بحثاً عن البطاطس ؟. بدأ بريديخين حديثه وهو يشعل

سيكارة .

- نعم ، نعم .. قطب بانكرات جيبينه مذكراً .

تلوى اوستين في مكانه . تكمش متفجعاً بأجمعه لكي لا يرى نفسه ،
لكي لا يندفع هاوياً على رأس بريديخين بالمطرقة المستقرة تحت قدميه .
- توجه فيودور بريديخين - وكأنه لم يلاحظ اوستين - بحديثة نحو
بانكرات وكوستيوشكا . تكلم مذكراً ربيع عام اثنين واربعين الصعب
العسير .

- لم يكن البذار قد انتهى في مزرعتنا التعاونية بعد . غير ان الحاجة
اقتضت ان تفرس البطاطس في المياقل الخاصة . لكن من ذا الذي
يفرس ؟ النساء في الحقل ، الاولاد في المدرسة ، العجائز والشيوخ
جالسون في البيوت مع الاطفال الصغار . واما بعد ، فقد بان ماهو
اسوأ : نظرنا الى أقبية المؤونة فاذا بالبطاطس ضئيلة جداً ، لاشيء
تقريباً . لقد اتينا عليها في الشتاء ، اذ لم تقم مائدة الطعام إلا على
البطاطس . لم يبق منها ، حتى لأجل البذور ، سوى القليل . وسرعان
ما طرق الاسماع ان وضع البطاطس جيد في منطقة الشمال . جمعنا
النقود بمساهمة عدد كبير منا ، ثم توجهنا قاصدين مدير ادارة المزرعة
التعاونية : قررر ، من منا توجهه للرحيل !.. فأوصى المدير قائلاً : من
زريبة البقر تؤخذ يفرومينيا ديدوشيفكا ، ستحل محلها الجدة
زاتسيبيخا . ولكي يأخذ الامر مجراه بسرعة ويجمع المدير تحت تصرف
ديدوشيفكا سيارة البيكاب عوضاً عن النقل بالعربات .

أصاخ اوستين : السمع ثم اخذ يتذكر : قد كتبت اليه فيروسيا ، ذات
مرة ، عن شيء من هذا القبيل . نعم ، نعم ، عن رحلة البطاطس هذه

ذاتها . لم تكن فروسيا راغبة في ان تغيب عن الطفلين ، تاركة اياهما في الدار وحيدين . الا ان المدير وعدها بأن تتعهد الولدين بعين الرعاية الحسنة البارة . تلك الجدة العجوز ذات سييخا نفسها : جارتهم التي من اليسير عليها ان تقوم بذلك ، لأنها تسكن نصق دارهم . لكن الجدة هذه لم تحافظ على الصغير فاسيليك ، فقد اصيب بالبرد واوشك ان يفارق الحياة . وكتبت فروسيا تخبر اوستين ، يوم كان في الجبهة ، بشأن هذا المرض ، فراح يشتم لاعناً بصمت ، وهو يقرأ الرسالة في خندقه . رحلة البطاطس تلك جميعها ، كبلية مميتة تفرغ محدثة ضجيجاً مدوياً فوق ام رأسه تماماً . وها هي ذي البلية ذاتها تعاود الكر من جديد ، كأن لم يكفها ما أحدثت من ضجيج قاتل في المرة الاولى !

.. آه ، فروسينكا ، قلت لها . فلنشذ الرجال بأمعاننا الخاوية ولنطرق الابواب على الناس الاخيار !... تحدث بريديخين وعلى شفقيه ابتسامة مباهاة حمقاء .. رمينا في جوف البيكاب حزمة من الاكياس الفارغة ومعطفاً من فرو الضأن ثم تحركنا . الربيع حولنا في كل مكان ، لكن الطرق موحلة . اخذنا نتزحلق دون ان نتحرك من مكاننا . سيارتنا الهزلة كانت تنحني منزلقة امام كل خذبة ، كل منعرج ، كل اخدود ... وكان شغلي الشاغل هو ان اثب في كل لحظة من الكابينة لأدفع السيارة ، انتشلها من الاحوال . لقد تبالأت ، تنقعت ، توحلت ، صرت أشبه بالشیطان شكلاً . لكن النفس كانت مريحة منفرجة : امرأة شابة تجلس الى جانبك ، تنظر بعناية اليك . ترعاك . اما انت فسهيد بأن تجد وتسعى .. لو لم تكن فروسيا معي لخارت سريعاً جميع قواي ، لانطلقت الشتائم والكلمات الفاحشه تترئ من فمي جهاراً امام مثل هذا الطريق

المقعر . لكن شيئاً من ذلك لم يحصل . واصلنا الرحيل نمزح ونضحك ، اسكب لها النوادر والنكات وما الى ذلك ، أحاول ان اتحسس مزاجها في صدد الغرام ، هل تقع في الصنارة أم لا ؟ أعرج على الموضوع من بعيد ، مخافة ان اجعلها تجفل فتتفر . أقول لها : حننت الى ملاطفة زوجك . أليس كذلك ؟ فتقول : «اشتقت الى صوت أوستين ، ليتني أسمع منه ولو كلمة واحدة !» . أجل ، أقول لها ، لقد كان صدأً حاراً رنان الصوت رخيماً . لست ادري زوجة من غدوت لو لم تكن ثمة أغاني أوستين واكورديونه . «وهل تراني تزوجته من اجل الاكورديون ؟» - قالت لي متسائلة . «ولم لا ، - قلت . - انه غواية ، طعم لذيذ يجذب الصبايا» . «هه ، اتعلم كم من غوايات لدى حبيبي أوستين ؟ ! انه أمامك ميكانيكي ونجار ، وهو يلبد الجزم الشتائية ويحبك معاطف الفراء مثلاً يجيد العزف والغناء ... اما رسائله التي يكتبها الان إلي ، فما أرقها !... كأنها ليست رسالة من ساحة حرب . اية كلمات لطيفة حنونة يختارها !... أحس انه شديد الشوق ، يستوحش . وعلى الرغم من انه هناك بصحبة رفاق السلاح ، لكنه - مع ذلك - وحيد قلباً . وهذا يعني انه هنا في البيت ، معي ومع الطفلين» ... اجرب ان أدورن فروسيا على منوال آخر . أقول لها : ولكن لاوقت للوحشة هناك . لا يفسحون المجال . انها الحرب . هناك ، أقول لك يا فروس ، تتوافر امورك كثيرة ... فما عدا الرفاق توجد ثمة رفيقات ، وأية رفيقات ! وفي الحرب هكذا : اليوم انت حي تترى ، وغداً تذرف الارض عليك الدموع . فلا تقف مكتوف اليدين اذا ما وهبك الله التوفيق . ورحت احداثها عن أشياء تتعلق بمغامراتي . فطلبت مني ان اوقف السيارة وانتقلت من مكان

جلوسها في الكابينة الى جوف السيارة ، قائلة : الجو منتن جداً داخل الكابينة ، دخان خانق ، رائحة البنزين المحروق ...
وجدنا البطاطس في بويانوفا . اشترينا بالجملة ملء كيس من هذا وملء كيسين من ذاك ... وشيئاً غشياً جمعنا كمية تقرب من طن ونصف الطن . كان أمامنا في طريق العودة حوالي مئة وعشرين كيلومتراً ، خشينا ان نقطعها ليلاً . بتنا عند إحدى النساء : فروسيا في المنطرة مع ربة الدار ، وأنا عند الموقد الحجري ، على المنامة الخشبية .

في الصباح بدأنا رحلة العودة . وبعد مضي ساعتين تقريباً ، وفي منتصف الطريق حدث عندنا عطب : طارت عزمقات اسطوانتي السيلندر . انجزرنا حتى ممر كورغانسك الجبلي ، ثم توقفنا . بين بين ، كما يقال . ما العمل ؟ تلفت حولي ثم قلت لفروسيا : « يجب ان تكون ثمة من قرية وراء الممر الجبلي . سأمضي الى هناك ، اما انت فامكثي ها هنا لحراسة البطاطس » . خشوت لها الهندقية ذات الماسورتين . يذكر ان جماعات مختلفة من اللصوص وقطاع الطرق المسلحين كانت تتسكع في هذه البقاع اثناء تلك السنة ، وكان رجال البوليس يقيمون الكمائن لمطاردتهم . خذي الحذر ، قلت لها ، افتحي عينيك جيداً ، واذا بدر شيء ما فاطلقي النار ...

غبت عن فروسيا ثلاث ساعات . عانت خلالها من الخوف كثيراً . استقبلتني بفرح غامر . لقد عدت ، صلحت المحرك ، وكان علينا ان نتحرك قافلين . لكننا قررنا ان نتناول شيئاً من الطعام . جمعنا بعض الحطب اليابس لاضرام النار . حضرنا الشاي وجلسنا نحسبه ، متجاورين ، من وعاء واحد وحولنا هناءة الربيع ، أجمل بها من

هناة ١. سماء زرقاء وارض خضراء مزهوة بغراشها العشبي الذي ظهر لتوه . اما نفحات العبير ، فما أطيبها من نفحات ... ليس عبثاً قولهم : في الربيع ، ليست الكائنات الحية وحدها ، بل وحتى شظايا الخشب تخوض مياه السواقي فيسلق بعضها الآخر ! وهكذا أنا ... لقد تلخبطت ، شعرت كأن اعضاء جسدي جميعاً شرعت تتحرك فيها شهوة حيوانية عارمة متلهفة ... كتاك التي تستبد بذكور الكلاب !. اما فروسيا نفسها ، فما هي ذي بجانبى ، اراها تنظر الي بلطف ، تعاملني معاملة طيبة الى حد ما . اغتسلت في الساقية ، سرحت شعرها بمشطها الخشبي وبدأت أمامي رخصة ، غضة ، مودة الوجدتين ... فاذا بي احتويها ، اعصرها ، ألويها ... فجأة .

- ها - ها - ها - ها - ، اخذت تتدحرج ، تزئيق ضحكة كوستيوشكا المحاسب ، تلك الضحكة التي اثارت مزيداً من الغضب في نفس اوستين المتوترة توتراً عنيفاً والمشدودة شداً قوياً في دأرف خيط من أمل ما . وثبتت مندفعة في داخله قوة انتقامية حاقدة شريرة ... لكنه أحس ، في تلك اللحظة ذاتها . انه ممتن ، مدعوس ، قد وهم بالعار الى الابد الأبديين ... قبل ثوان معدودات كان مايزال يشعر بالرغبة في ان يصرخ ، ان يشد على لوزتي بريديخين شداً . بيد انه ادرك الآن أن لا سبيل في مثل هذه الامور الى اصلاح اي شيء بالصراخ ولا بقبضات الايدي . لكن هذا الصرصور الذي يهاهىء مستخفاً ، ما مبعث فرحته ، ها ؟ ما الذي يبهج هذا الأعرج ؟ ألم يكفه خزيّاً أن هجرته زوجته الثانية ؟

تحنى اوستين محولاً بصره عن قطع الحديد ، رفع رأسه ورمق

كوستيوشكا بنظرة من العتمة . أما هذا فإنه حين واجه مقلتي أوستين
البراقطين نهض من فوق المصطبة بهدوء وصمت ونكص متقهقراً نحو
الباب وعلى وجهه العصفوري يوسوس رعب خرافي .

- لم أصادف من قبل مثل هذه المرأة الجلدة الحازمة الصارمة ، -
وأصل بريديخين حديثه ، ناظراً الى وجهه بانكرات المتجهم الصارم
العنيد . - لقد عصرتها ، شددت عليها بقبضتي شداً جموحاً لو كان على
صخرة لاستسلمت . لانت . أما هذه ... فكمشة من غفار غمرت بها
وجهي ، ومن ثم تملصت ، أفلتت . وبعد ذلك جرت خاملة البندقية من
كابينة السيارة . « اقتلك فوراً » ، صرخت بي ، - كما يُقتل دُبٌّ ... جَرِبْ
فقط أن تمسني ! - « اوه ، فيروسينكا ، ارحمني ، - قلت لها
مستعظفاً . - لماذا تطلقين علي ، أنا الأعْمى ، الرصاص ؟ لقد هيلت
العفار في عيني كليهما . من ذا سيوصل البطاطس اذن ؟ ... » . جلبتُ
لي من الساقية ماء ، غسلتُ عيني ، ثم تحركنا . وفي الطريق بدأ الفأر
يلعب في عبي من جديد . ورحلت أحدثها ، اشرح لها : الوقت ، يعني ،
عصيب جداً ، يا فيروسيا ، انها الحرب . اليوم ، كما يقولون ، انت على
قيد الحياة وغداً يواريك التراب . يضاف الى ذلك ، أقول لها ، اننا نكد
من الفجر الى الفجر دون ان نتنفس الصعداء . فهل نرتكب إثماً عظيماً
إذا ما لهونا قليلاً ، إذا ما الجسد الفتى نعمناه ؟ ... أعطيناه بعض
ماله من حق علينا ؟ ... أه لو رأيت كيف ثارت ثائرتها ، كيف هبت جامحة
تلغو ، تسب وتلعن ... لقد بدت وكأنها واحد من قادة التوجيه السياسي
الحزبي ! ... ويختني ، خضتني كما يجب ... بحيث انتي بدات ، منذ
رحلة البطاطس تلك ، احترم فيروسينيا ، ومن خلالها احترم أوستين

كذلك .

انتهى بريديخين من حديثه ، وساد الصمت في ورشة الحدادة بعض الوقت . جلس بانكرات مستغرقاً في التفكير ... لكنه كان ، هذه المرة ، خالياً من تجهمه المهدد المتواعد ، الذي زال عن وجهه مع كلمات بريديخين الأخيرة :

- تقول بدأت تحترم أوستين ، ها ؟! يا للعجب !.. لكن كيف يمكن ان يقال مثل هذا ؟... أنا لست بحاجة الى احترامك واهتمامك ، لاتحاول ان تمنحني رتبة ضابط صف ، ولاتلمسني زوجتي ! - قال بانكرات ذلك بعد صمت قصير وأشار الى الزاوية ، حيث كان أوستين يعالج ببطء وهدوء قطع الحديد . - الرجل لا يسمع إلا كان اسمعك مثل هذا الكلام تماماً .

- ولكنه يسمع كل شيء !... ذلك واضح من وجهه . - فجأة صرخ كوستيوشكا ، ضاحكاً ضحكة خبيثة ، نافذة مربية ، بل وفظة جافية ايضاً ، وقد عاد في وجل من الباب حيث كان منزوياً بعد ان قذفت به نظرات أوستين الزاحمة .

- لكن وجهك انت لا يبين عليه أي شيء ، - تكلم بانكرات بهدوء ، دون ان يعير أية أهمية للحدز اللئيم الذي ابداه كوستيوشكا . - انظر كيف نما عليه الهلُب^(١٦) كانه وجه قاطع طريق . الا تخجل من نفسك وانت تجالس الناس في مكتبك الرسمي بمثل هذه اللحية الشبيهة بشعر الخنزير ؟ اليس لك شفرات حلاقة ؟ نعال إلي فأعطيك ادوات حلاقتي ، ان لحيتي لم تعد بحاجة اليها . انك لما تبلغ الاربعين بعد ...

١٦ - الهلُب : الشعر كله او ما غلظ منه ، او شعر الذنب ، او شعر الخنزير الذي يخرجه ..

لماذا أسففت كل هذا الاسفاف اذن ؟ ! واضح الآن لماذا هجرتك زوجتك
ناستيا كوفروفا وذهبت الى حيث يعمل والدها في مقر ادارة الغابة . لقد
حكمت المرأة عقلها فتدبرت امرها : خير لها ان ترحل الى الغابة للعيش
قرب دبة حقيقية من ان تمكث مع انسان ممسوخ ذي وجه ينمو بشاعة
وقيحاً ...

جفل كوستيوشكا ، كما لو انه وطئ شيئاً ما حامياً ، تململ في
مكانه ، ثم بدأ يدور ، بعينه الخضراوين الصغيرتين الساطعتين بحب
الانتقام ، قرب الجالسين على المصطبة . ظل هكذا ، يتململ ظالماً ، نحو
دقيقة من الزمن الى ان وجد كلمات التبرير المناسبة .

- انا لا أعيش مع الحمقات ! - صرخ بعصبية في وجه السقف .
- الزوج السيئ لديه دائماً زوجة حمقاء . - تكلم بانكرات بصوت
واطئ ، ماراً يده على لحيته القصيرة .

- وما السيئ في ؟ اقبل كوستيوشكا مسرعاً نحو العجوز ، التصق
به مباشرة ، فاتحاً على صدره سترته الرثة المبتذلة . هل انا امرؤ ذني ،
أسكر انا ؟ ويل لها ! ... لا أروقها ، مقرف في نظرها ، لأنني أنضح
عرقاً . رطب دائماً . هاكم انظروا ، مثلاً : فانيلتي التي ارتديها ،
جسوها ! .. انها ندية الان ايضاً ، كأنني مستحم لتوي . من اين لي ان
اوقرلك - تقول لي - ما يكفي من الملابس الناشفة ؟ . إذن ، من المذنب
هنا ، خبروني ، اذا كانت عندي هذه الحالة المرضية العصبية ؟ . قال
الاطباء ان الاعصاب مرضوضة ، مكدومة ... وهذا هو سبب عرقي .
رحت الى الجبهة ناشفاً سليماً وعدت مبتلاً سقيماً ... انا
هكذا ، ... اعتل ، اقبل ، ان صيفاً وان شتاء . أما هي ، جنية الغابة ، فهات

لها فحلاً معافى مشافى ... لكنني انا الاخر ايضالي - مادام الامر هكذا -
مطالبني واحتياجاتي : الالهيا هاتوا اعيدوا الي ساقبي السليمة ! ما
حاجتي الى سوق الكرنب هذا ؟ هاتوا .. ها ، لستم بقادرين ؟ اذن ما
الفائدة التي ارجوها منكم لكي اذعن ، ذليلاً متضرعاً اليكم ؟!
تريدونني ان اظهر امامكم حليقياً ، نظيفاً ... لقد خسرت عافيتي في
سبيلكم ، جدعت ، وتكسحت من اجلكم . اذن فليضرع الآخرون الي ،
وليس انا ..

- قفء كوستيوشكا ، فزمل ! مسك بريديخين بكوع المحاسب . انتظر
وضّح ... من ذا الذي يجب ان يتضرع الى ساقبك العرجاوين ، ها ! انا ام
اوستين هذا ؟

- انك محشو بضجر بليد سخيف ، يا كوستيوشكا . تريد ان
يحترمك الناس لعاهاتك وتشويهاتك فقط . لا تتوقع ذلك ، - دخل
بانكرات في الحديث ، متعاطفاً ، دون موعظة او اذانة . - ولا تسخط على
الناس بلا سبب . ان اليد والرجل تكسرها فتألفهما ... اما النفس فانك
اذا اتلفتها ، جرّحتها . لن تأنس عندئذ بها ، لن تألفها . اي نعم .
- داركوستيوشكا ، خامعاً في مشيئته . حاول ، المصطبة وقد ابيضّ
جُنْحاً انفه^(١٧) ثم اقترب ، بعد ان التفتي نظرة بريديخين المروضة ،
اقترب من اوستين المقبل لتوّه ، وقف الى جانبه ولزم الصمت . الا ان
اوستين ابتعد في الحال عنه ، حادثاً خطاه نحو السندان .

- اه، انك لتجمد ، مع امثال هؤلاء الثرثارين ، برداً حتى وانت واقف عند الكون تذكر بانكرات مفاجئة شيئاً ما ثم راح يقفو خطى اوستين . عملوا اربعتهم ، متكاتفين ، عملاً كثيراً ، ناجحاً ونافعاً ، حتى وقت متأخر من مساء ذلك اليوم ، دون ان يشغلوا انفسهم اكثر مما يجب بفترات استراحة وتدخين طويلة معوقة . تمكنوا من انجاز جميع الاشياء المطلوبة ، وكانوا راضين مرتاحين... إلا اوستين ، في الأرجح . فقد عاد الى البيت منهكاً ، متعباً ، خائر القوى الى حد يفوق الحصر والوصف . وكانت هذه اول مرة يجد فيها نفسه هكذا . بيد انه ادرك هو نفسه سبب ذلك . فاذا كان التعب سابقاً ، وحتى يوم امس ، يمكن ان يطلق ، بل وسائغاً لذيداً أحياناً ! لأنه يمنح النفس نوعاً من الراحة ، فان تعب اليوم هذا قد تراكم - بالضبط - من التوتر النفسي المفرط والجهد الفكري المضني . كانت تطن في اذنيه طيلة النصف الثاني من النهار ، طنيناً ملحاً صرخة كوستيوشكا : «ولكنه يسمع كل شيء !» . نفر اوستين من كوستيوشكا وابغضه ، بسبب امعانه الكريه المفقوت هذا في التدقيق المتقسم بالمكر والدهاء ، وبسبب جرده الذي سعى جهده في ان يصبه - منتقماً على الناس وكأنه يفعل ذلك نكاية وثأراً لركنكته وخرقه ، لافلاسه وتهافته ، ولاخفاقه في حياته الخاصة . «هو اضعف مني وادنى ، لكن لماذا اخافه واكرهه اذن ، في حين يجب ان اراف به واصفح عنه ؟ لماذا يملك هو الحق في ان يظن بي الظنون ، في حين يجب علي ان احترس منه وحسب ؟ - راح اوستين يسأل نفسه . - او يريد يخين هذا... لقد تغادى الحرب ، تملص منها بسهولة ، وهو هنا ، في ما وراء الجبهة ، ليس ميالاً الى العمل كما يجب . انه لا يقوم بثلاث ما

يقع على عاتقي من اشغال . لكن ، انظر اليه :يمشي على الارض مشية
الديك .كل شيء عنده سلس وسهل مستساغ ، يضحك ، يأكل وينام
هنيئاً مريئاً ، يعيش بحرية وعلانية ، كالاتقياء الصالحين !.... اما
انا فلست بقادر على ان افعل فعله غير مسموح لي بذلك ،
ممنوع !... ومع انني في دخيلة نفسي ، ضمن حدود ذاتي ، لست اسوا
من بريديخين وكوستيوشكا ، لست دينئاً ولا متكاسلاً ولا نفعياً ... اما
الحياء والضمير فعندي منهما اكثر مما لديهما . ولكن : هيا تكتم ،
احترس ، راقب بحذر وحرص كل خطوة من خطواتك ، وكل نظرة من
نظراتك !... أهو عقاب ، ياترى ، نزل علي لانني قد تصرفت بشؤوني
تصرف صاحب الشأن ذاته ؟... ٩

راح اوستين يخطو في الشارع المظلم ، منزلقاً في برك صغيرة من مياه
الامطار فوثبت من بين شفثيه الفاظ سباب ولعنات سرعان ما قمعت قبل
ان تبلغ حروفها الاخرة .. وتجاه داره ، اصطدم في الظلام بجذرتـه
نيوركا كوريوشينا التي كانت عائدة ، كما يبدو ، من زريبة البقر . شعر
بالرغبة في ان يتوقف ، ان يقول للمرأة كلمة لطيفة طيبة ، ان يعتذر لها
عما بدر منه سابقاً من معاملة خشنة تجاهها . إلا انه لم يفعل سوى ان
نظر نظرة خاطفة الى وجهها المدور اللطيف ذي الملامح الحزينة التي
لا تكاد تتميز في العتمة ، ثم تجاوزها ماراً على مقربة منها .

فكر حالاً ، وقد انتابه شعور بعدم الرضا عن نفسه ، ففكر في ان نيوركا
وكوستيوشكا وبريديخين ، وعلى العموم ، جميع الناس الذين يعيشون
الى جواره ، يثيرون في نفسه الاسئ ، لا لانهم يتصرفون تصرفاً قبيحاً ، بل
بسبب ذلك القدر الذي يقترحون به ، حذسياً وبدون قصد ، من سر

إنهم .. أجل ، ان السوء بالنسبة لي هو ليس في الناس ، وإنما في أنسا
بالذات . اكذح الى مايقرب من حد الهلاك ، أسعى لأجل خير الجميع ،
لكن يجب علي ان أعيش كلص ، كأني جاسوس . حتى في الفراش ، جنب
زوجتي ، أحرس نفسي محاذرة من أن أغمغم أو أتمتم في المنام . أسمع
اصوات طفلي ، إلا أنني لا أستطيع ان ارد عليهما . أخشى ان أبعث
الفرحة في قلبيهما . لقد أتى الخوف على المسرة كلها ... أحقاً ان في
داخلي كل هذا القدر الهائل من الرعب ، ياترى ؟

في الجزء الداخلي من مدخل الدار ، خلع اوستين حذاءه ثم اخذ ينشر فوق الرف الخشبي سترته الندية من عرق ، فمس بكتفه اكورديونه القديم المعلق في الزاوية الى جوار زنبيل للبذور . كان الاكورديون ، وهو يتدل وحيداً وعارياً من ايما غطاء ، وقد ربط بحبل معقود الى مسمار مثبت في الجدار ... كان اشبه بأداة منزلية مستهلكة انتهت الحاجة اليها فبقيت تنتظر اوان يتذكرونها ويرمون بها خارجاً . واخر مرة اخذ فيها اوستين اكورديونه بيديه كانت في احد الايام التي اعقبت عودته من الجبهة . اراد ان يسلي فروسيا والصغيرين ، لكنه لم يقو على ذلك . لم يتمكن من ان يعزف شيئاً وهو لا يسمع الاصوات . اخذت انامله تجري على الازرار كالمعتاد ، غير انها بدت وكأنها تخط خط عشواء . وبدلاً من الموسيقى المتوافقة المتوائمة ، قاء الاكورديون ضرباً من الفوضى الموسيقية المخافقة للعقل والذوق ... حتى ان فروسيا انفجرت ضاحكة ، اول الامر ، لكنها شرعت تبكي فيما بعد . انتزعت منه الاكورديون ووضعت في مكانه الى ان تحين - ان شاء الله - اوقات افضل .

وفي هذه اللحظة يقف اوستين ناظراً الى الآلة الموسيقية بحزن يشوبه شعور بالذنب ، وكأنه ينظر الى بيت صغير متواضع كان في يوم ما مبهجاً وباشاً للجميع ، لكنه بقي ، في الوقت الحاضر ، مهملاً مهجوراً بسبب

خطأ ارتكبه هو .

نزع الاكورديون القرب من المسمار ومسح ، مبتسماً ، على دساتين
ازرار البيض . «لقد نسيت بالمرة ، انقطعت الصلة ... ثم ان يدي الان
هما اشبه بمطرقتين . أيمكنهما ان تعرفا ؟! لعلي استطيع ، فانا
الان اميز الاصوات .

صفقت الباب ، دخلت الدار فروسيا . حفز وجهها القلق الكتيب
اوستين ونبهه . «يبدو انها اليوم ايضاً قد بكت وناحت كثيراً مع النساء
الاخريات في زريبة البقر ، يعني ثمة من استلم نياً باستشهاد قريب
له» . - فكر اوستين .

- والدك حالته سيئة . استدعيت الموظفة الصحية ... يستحسن ان
تذهب اليه ريثما أعد العشاء .- تحدثت فروسيا ، مرذفة كلماتها
بالاشارات التي كان من المخجل والعسير على اوستين ان يتحملها .

ذهب الاكورديون الى مكانه ، تاهب على عجل ثم خرج الى الشارع .
كان يسير مسرع الخطى ، فاذا به يسمع من نوافذ النادي الصغير ،
أندي هز امامه ، تراجع ترائيل منطلقه من جناح بقولية ناعمة فتية
ونغمات أوتار ترسلها البالاياكا^(١٨) بصوت خافت ضئيل . «لو كان
الغناء جارياً علي انغام الاكورديون لجاؤ اكثر براعة» - فكر اوستين . -
«ما اروع ما كان يجري هنا فيما مضى !... اما الان فلقد عقدت فمي
وغم الاكورديون ايضاً ...»

مرة اخرى تدرك النوبة كوزما دانيلوفيتش وتلزمه الفراش . كان
راقداً في الركن الخصري من غرفة الضيوف ، فوق سرير مرتفع نظيف .

١٨ - البالاياكا . آلة موسيقية وترية روسية ، تشبهه بالبيانو .

ولعل مجيء الموظفة الصحية هو الذي ساقه الى ان يترك مكان نومه المعتاد ويضطجع على هذا السرير المهجور الذي بدا وكأنه مستقر في متحف . لقد هيجت روائح العقاقير الطبية ، التي خلفتها الموظفة الصحية وراءها ، شعور الجزع والحنان لدى اوستين تجاه والده . دنا من السرير وجلس على المقعد الخشبي . كان يطرق الاسماع ، قادماً من المطبخ ، ضجيج الرحي الحجرية الصغيرة التي كانت تطحن بها فارقارا الحنطة .

- اوصد الباب يا اوستين . انها تصخب ، عليها اللعنة !... اكن ضرورياً لها ان تثير برحاما كل هذه الضوضاء في مثل هذا الوقت ، اما كان بإمكانها تأجيل ذلك ؟ - شرع العجوز يصرخ بصوت متهيج واهن ضجر ... اقتربت فارقارا من الباب قبل ان يدركها اوستين ثم انهالت بالشتائم ، اثناء ما كانت تهم باغلاقها :

- ها ، ماذا جرى ؟ لماذا تنبح يا كوزما ؟ ما الذي ينقصك ، ها ؟
- كفك هاهة ، يا انت ؟ لم تكني^(١٩) الى عربية خيل ، فلماذا تهاهئين هكذا كالحصان ؟ - صاح بها كوزما دانيلوفيتش ، مكشراً تكشيرة حانقة وقد ظهر عليه النصب والاعياء ، ثم حول وجهه المستقم المضنى صوب اوستين يسأله العون والحنان . ما كان العجوز ليرغب في ان يعتل ، لم يكن يحب ذلك ، لم يطقه ... وانه الان يرى نفسه مذنباً امام الجميع ويرى الجميع مذنبين امامه .. هذه هي حالي يا بني ؟
نسيت راغباً في مثل هذه الحياة ، لكن ليس ثمة من يخلصني من عذابها ؟ - بعد ان سكت متجهماً بعض الوقت ، بدأ يتشكى وبأسف

^{١٩} - كمن الحصان الى العربية - قرنه او شده اليها .

لحالهِ .. تسألني : ماذا يوجعك ؟ انه الشيء نفسه ... مرض الذبحة الصدرية ، هل تسمع ؟ ولعلها هي التي ستوصلني الى القبر عما قريب ... اذا داهمتني مرة اخرى مثل هذه المداهمة فلسوف تعصرني عصرأ ... قبل ايام وقعت تحت وابل من المطر فتبللت واخذت بردأ . كنت اقوم بحراسة المستودعات وزرائب البقر اثناء الليل ، فهل تعتقد ان ذلك سهل يسير ؟

بعدئذ ، اخذ كوزما دانييلوفيتش يسأل ابنه عن الصبيين ، عن العمل ، عن كل ما هو واضح بالنسبة اليه دونما حاجة الى اجوبة .

- لماذا انت ساكت ؟ هل عقد لسانك من جديد ؟ .. بريك ، لا تفزعني ! .. ها انني اتكلم مع ان الذبحة الصدرية تخنقني خنقأ ... ضيق كوزما دانييلوفيتش عينيه الزائفتي النظرات ، باحثأ عن شيء ما في ابنه الصارم القسمات .

-لدي ، يا ابي ، ذ .. ذبحتي الصدرية الخاصة ... ت ... تضغط علي بقلها ، همس اوستين بانفعال ، وضرب صدره بقبضة يده : - ها هي ذي ع ... عندي ها هنا ... ت ... تمص من د ... دمي . في كل لحظة من ح ... حياتي افكر فيها ...

نظر كوزما دانييلوفيتش الى ولده معبساً . تغير شيء ما في وجهه ، امتقع لونه ، حل القلق المرهق محل الوهن الموجه .

-ولكن لا تفكر ، تكلم باهتمام فاتر . انس حل شيء ، اقطع الصلة . هاك مثلاً اغايوف ميخائيل الذي عاد فاعداً احدي ساقيه . استسلم للحزن ربحأ من الزمن ، قضى بعض الوقت يعاكس ويشاكس ، ثم تعود بعدئذ والى ... هيبست ام لم تأس ، الامر سواء ، لن تنبت لك ساق

جديدة .

- لكنه هكذا به ... بساق واحدة اسهل له مـ ... مني وانا بـ ...
بساقين . لو كان جـ ... جرب ان يـ ... يظلع وهوب ... بقدمين
سليمتين ! .. انه لن الصعب جـ ... جداً ان تـ ... تضلل نفسك
والناس .

- والنتيجة هي ان ميشكا الان مقعد ، اعرج الى الابد . اما انت
فعليك ... يا لك ، ما عليك الا ان تتعامل على نفسك وتصبر ، تنتظر
شهوراً واحداً فقط ، على علاته !.. هل تستمع الى الراديو ؟ ان الامور
تسير على الجبهات سيراً حسناً وموفقاً . يطاردون الالمان في كل مكان .
وها هي قواتنا تتوغل خارج حدودنا . لن يحل الشتاء الا وتكون الحرب
قد شارفت نهايتها . فما لك طامحاً بالذهاب الى هناك ، كالعاري الذي
يجري ساعياً الى الحمام ؟ ان الامور تتدبر هناك كما يجب دونما حاجة
الى وجودك .

- انا اريد الامور به ... بالطريقة الانسانية . كالاخرين ... به ...
بما يـ ... يريح الضمير لكي

- وهل انت بلا ضمير يا ترى ؟ ... انك لم ترَ فروسيا كيف كانت
تنحب ، قبل ايام قلائل ، راثية لحالك . تقول انك تحطم نفسك ، تهلكها
تماماً بالعمل . وهي تقول ايضاً : اما انه موعود بمكافأة ممتازة او انه
يتم التزم التزاماً شديداً بانجاز عمل كبير لقاء مبلغ جيد ... وانه لا يتذكروا
يعرف شيئاً غير وزنته المدخنة المسخمة !.. لقد كانت لديه في السابق
ايضاً ، كما يقولون ، رغبة شديدة جداً في العمل . لكن ليس ثمة من
يستطيع ان يدمر نفسه هكذا بالعمل في دار الحكومة سوى المجنون .

أما هو ففي كامل عقله ، كما يبدو .

— حقاً ، كنت أظن ... أنني سأجد الخلاص في العمل .. ولكن لم

ي ... يتغير شيء .. هذا .. ي ... يصلح لشخص آخر .. يتلائم

مع ط .. طبعه . لكن ليس لي ... أنت نفسك ، يا أبي ، كنت د ... دائماً

ت ... تقول : في الكذب والبهتان لم نعيش نحن ، آل د ... ديدوشيف ،

أبدأ ...

— ها أنتك دوزنت : الحق ، الباطل ، الضمير ! ولكن انظر الى يديك !—

رفع كوزما دانييلوفيتش نفسه قليلاً ، مستنداً الى مرفقيه ، بدأ رأسه ،

وجهه الملتحي يهتز واهناً فوق الوسادة . وبعد ان القى نظرة على الباب

التي كانت تصخب خلفها الطاحونة اليدوية ، ارسل صيحة خافتة :

— انظر ! ها هوذا ضميرك ، انه بأجمعه هنا ، على راحتك . دع اي

واحد غيرك يشعر بالخجل ، يدعي الضمير ، اما ضميرك انت فيسد

مسد خمسة . نعم !

القى كوزما دانييلوفيتش رأسه على المدة ، وبعد قليل من الانتظار ،

وأصل كلامه باعياء :

— طبعك ، كما لاحظ ، شبيه بطبع ابن عمي . هل تتذكر غرينكا ؟ ...

كان فتى عاطفياً للغاية . ومن هنا سبب احتراقه وقشله . لكن ما هي

جناية غرينيا ، ما الذي فعله فنارت عليه ثأرتهم ؟! كل ما في الامر هو ان

هذا الضمير القاصر العقل قد اشتغل مساعد طباط مدة ثلاثة اسابيع

لدى الاعماء البيض ، مرتكباً بذلك حماقة دفعه الجوع اليها . ثم انهم

عشروا في صندوقه على صور متناثرة ظهر فيها الى جانب القوازيق ، كانت

قد التقطت صدقة ... انتشرت الاقاويل والشائعات حول هذا الامر بعد

انتهاء الحرب الاهلية ، حيث كان كل شيء قد هُدم واستقر ، غير ان غريتنا اراد ان يوضح الاشياء بمقتضى الحق والضمير ... اراد ان ينزع عن نفسه الاهانة . انى لهذا الارنب المسكين ان يكون - كما ادعوا - من انصار البيض او من العاملين لمصلحة الكولاك (١) ؟ ما هو الاصلوك بانس من عامة الفلاحين ؛ وكان يعيش في مستوى من الفاقة بحيث انك لا تجد في احد جيبه سوى الخواء الابدى ، واما في الجيب الاخر فلا شيء اطلاقاً ... غير انه وقع تحت يد ساخنة غاضبة لا ترحم . وكان ان بدأ القصف والقذف وتساقط التهديد والوعيد ... هو نفسه الذي تحدث بصراحة ، اقر بذنبه ... وهو نفسه الذي وضع الانشطة في عنقه ... هكذا هو الشأن : كن شاة وسرعان ما تظهر الذئاب ... !

بدأ يهمهم في صوت كوزما دانيلوڤيتش امتعاض ، ضيم قديم . غضن وجهه برهة وهو يستعيد بعض الذكريات الثقيلة وصوب نحو اوستين نظرة محملة بالكدر والجزع وانشغال البال ...

- اجل ، ان الاحمق وحده هو من يفترى على نفسه بنفسه ، - تكلم بصراحه ، لكن وجهه سرعان ما تراجى في اللحظة ذاتها ، وترقرقت الدموع متلألئة في عينيه الغائرتين بعيداً في محجريهما . ثم واصل الحديث بصوت متهدج من اثر الشيوخوخة : - فارجوك ، يا بني ، ان تسمعني وتطيعني ... دعني - بالله عليك !- اغادر هذه الحياة هادئاً مطمئناً ، لا تمرق مهجتي ! وافعل بعد ذلك ما تشاء ... لكن اطرح الان الحماقات من رأسك ، لا تنبش ضميرك ، لا تهيج ما في نفسك . اذ لم يحاول احد ان يسهر اغوار ذاتك حتى الان ، ولم يتسلل اليك مراقباً

(١) الكولاك : الفلاحون الاغنياء الذين يستثمرون جهد غيرهم

متفقداً . لا يعلم هذا الامر سوانا ... انت وانا فقط . هكذا نلتعش ،
احمد الله ولا تعقد لروحك معرض فرجة او زفة عرس . وهل ثمة من
حاجة الى ذلك ؟ ... هيا اجلب اسرتك ، اشغلوا الجزء الرئيسي من الدار
وعيشوا . اما انا فكثر جداً علي مكان الموقد الحجري والمنامة الخشبية
المجاورة له ... تعال غداً لنحرر وثيقة رسمية اكتب لك فيها الدار كلها
باسمك . فلتحافظ عليها ، لسوف يتفجع بها اولادك واحفادك ايضاً .

- شكراً لك ، يا ابتاه . متعت بالعافية ... قال اوستين ذلك
بامتنان ... فقط ... يستحسن بي ، على كل ، ان ا ... اخبر ، في الاقل ،
بإنكرات ، انه يتفهم ...

- لا تجرؤ ! هس كوزما دانيلوفيتش بصوت خافت حائق وعادت
مقلتاه جافيتين صارمتين من جديد . لا تعرض مصيرك للاذى ، يا
بني . اسمعني والا سيذهب كل شيء هباء . انتظر ، في الاقل ، حتي
تجتمع اللجنة الطبية . فليقرر الاطباء ما يقررون ... الاطباء ! فهمت ؟
اما انت فلا تحشر نفسك .

- حس ... حشرت نفسي في شرك . فممن اخاف ؟ ... ع ... عبتاً القينا
الرب في قد ... قلوبنا ! ... نهض اوستين واقفاً ثم سار ، بصوربيه
المحبوكين المرقعين ، فوق سجادة الخيش الصغيرة البسيطة وكأنه يعد
العدة لأمر ما .

- حسناً ، هيبناً ، هيا ... هات اقلل نفسك واجهز علي ، يا بني ! -
اخذ كوزما دانيلوفيتش يتكلم بنبرة تحذيرية تحريضية مؤنبة ... ولكن
ثوبانه لو كان ثبت عليك انك فار من الجندية او انك انسان متبطل كسول
لكنت انا اول من يركب عتبة الباب .

- ان العمل ليس وسيلة خذ ... خلاص هنا ...

- انك لبطل مقدام ، يا أوستين ... اترك لم تحارب بما فيه الكفاية؟ مشتاق ، يعني ، للعودة ثانية الى هناك ، عجباً لك !- تكلم كورما دانيلو فيتش بصوت واهن وقد اغمض عينيه - أنتعتقد انهم سيتركوك ثانية - انت الالكن المتلثم - تفقد مدفعاً ؟ لا ، يا حبيبي اسيبعثون بك الى صنف التموين ، فهمت ؟ هناك حيث تقشر البطاطس وتصلح احذية الجنود وملابسهم . فاحكم بنفسك اذن ، اين ستكون اكثر نفعاً هنا ام هناك ؟

- ليس لي أ ... أن أ ... احكم في هذا ، يا ابتاه . وليس لك ...

همد الضجيج خلف الباب . فاذا بأوستين الذي دهمه السكون فجأة ، يتسمر فاغر الفم ... وقد شعر بخزي فاضح للغاية وبانحراف شديد في صحته بسبب توقفه عن الكلام ، وملكه نوع من الشعور بالاشمئزاز الكئيب الملل جراء خوفه من صوته الحقيقي ، مما جعله يلوح بيده في غيظ وضجر ... ثم سار نحو الباب .

كان الجو خارج الدار لطيفاً ، هادئاً . السماء الغافية النجوم كانت معلقة ، دونما حراك ، فوق الرؤوس ، كأنها ترهف السمع الى حفيف الاشجار المستغرقة في سباتها الليلي ... وقف أوستين على سقيفة المدخل ثم راح . وهو يحس بساقيه وبجسده كله جودة الدم الابوي واصالته ، راح يطالع في خياله ، يتحسس ذهنياً : جدران الدار المعمولة من جذوع الشجر ، عارضة خشب البلوط التي تسند السقف وتدعمه ، قواعد النوافذ العريضة ، الكمرات (٢١) الصنوبرية ؛ اي كامل الهيكل

٢١ - الكمرات : الدعائم (الدعامات) .

المتين الجديد للدار الحديثة التشييد التي ستكون منذ نهار الغد ملكا مسجلاً باسمه ، هو اوستين . لكن الفرحة لم تكن قائمة ، كان ثمة - بدلاً منها - خواء ، فراغ نفسي فاتر ، ذاو ... بدا جمال الليل في غير مكانه واوانه . لم يكن متوائماً مع المزاج النفسي والتنغيم الروحي لأوستين .

انصرف الى بيته ، عارفاً أنهم ينتظرونه هناك على العشاء ، ان فروسيا تنصت الى كل خطوة عند عتبة الدار . اما هو فيدخل عليهم مجيئاً الاصوات والابتسامات المرحية بأن يلوي فمه ، يصغر خده ، يقلب اصابعه ، يتملق بشفتيه ، اي «يتكلم» مع احبائه ، مع اقرب المقربين الى قلبه ... انه يراهم كيف يجهدون انفسهم ، يتكيفون طامحين الى ان يوصلوا اليه ، على اصابعهم ، جميع اخبارهم واهتماماتهم ... ولكن ، هيا ادخل في الحديث ، قل كلمة جوابية ، اعلن عن صوتك ، يا اوستين ! ... أه ، حبذا لو قلت كلمة واحدة ! لاستقبلوها ، اذن ، كمعجزة سارة ... ربما !

« أه ، يا ابتي ، انني أسف الان على حالك ، مشفق عليك . لكن ، هيا تماثل الى الشفاء سريعاً لكي ابصق بعدئذ على عروض سيركنا المنحوس هذا كلها » - فكر اوستين وهو يسمع كيف كانت تنطلق الى القضاء ، من احد البيوت الكائنة في الطرف الاخر من القرية ، اصدااء حفلة توديعية في وقت متأخر من الليل ... لقد حملت الاصدااء الى اذنيه اهازيج الجاستوشكا الممزوجة بضحك وبكاء بأصوات نسائية ...

« وغداً ايضا سيطلبون دعوات جديدة لشبان اخرين ... ما يكاد الفتيان يفتحون عيونهم على الحياة حتى تتلففهم ساحات الوغى ... »

تذكر أوستين وجوه الشباب الذين يعرفهم جيداً ، ممن تسلموا صباحاً في مجلس شورى القرية دعوة الى القدمة العسكرية .. غداً ستعول النساء . وما لا تتمنى الاذن سماعه ابدأ هو عويل الامهات المريع .

كان يعرف ، كواحد من المقاتلين المجريين ، ديدن الحرب الحتمي والقابل - مع ذلك - للتعليل والتفسير في كونها نهمة ، تطمع بأكثر المشاركين فيها يفاعه وفتوة ، من اولئك الشباب المتحمسين الغيورين دونما حذر ، والباسلين الجريئين لكن بغير مبالاة . لقد شاهد وجرب كثيراً ، وهو يعرف انه من الافضل للفتى المقدام ان يغفو سوية زمنية فائضة من ان يتخندق بشكل اعمق ، من الاسهل له ان يعدو مزهواً تحت وابل الرصاص من ان يدب زاحفاً بصبر واثابة ... ان المقاتل المحنك المجرب قادر - بالموازنة مع الجندي الحديث العهد - على ان يظل سالماً آمناً مدة اطول ، حتى ازاء كل ما تحمله الحرب من قسوة عمياء .

« لا بأس . عساهم يكونون محظوظين ! سوف يعودون .. » راح أوستين ، وهو يواسي امهات المجندين ويشاركهن عواطفهن ، راح يحاول في الوقت ذاته ان يطمئن نفسه ايضاً ، ان يخمد ما في صدره من مشورات الاثم البعيدة تجاه هؤلاء الفتيان المرد الاغرار من ابناء قريته الذين يتوجهون الى جبهات القتال - وكيف اذن ؟ لكل دوره . والافمن ذاك الذي سيكون هناك ؟ ان لم اكن انا ، اذن يجب ان يكونوا هم ... »

عندما كان يغادر دار والده خيل اليه ان ثمة شخصاً ما قد كمن عند البوابة وراح يراقبه . وقف أوستين جامداً في مكانه ، ثم اندفع فجأة الى امام . تحركت سريعاً الى الجانب ظلال ، خفق على الارض وقع احذية خفيفة . ثم سكن كل شيء في ظلام الليل .

«اذن ، كانوا يسترقون السمع ، يختلسون النظر ... فكر يتوجس وحذر ، وفي الوقت ذاته بسخط واستياء .. وما الذي يختلسونه يا ترى ؟ اليس ثمة ورائي ولا امامي امور رديئة او محرمة او مزرية ... حسناً ، ولكنني اذا كنت قد جرحت روحي ، خدشت قلبي ، زرعت في جسمي دماً صغيراً ... فان ذلك كله يخصني انا ، هو ملكي ... وانني اعاني منه واتوكل اكثر من الجميع . ولن يعثر عليه احد ، لن ينكشف ما لم اظهره انا بنفسي . ولكن فقط بعد ، بعد ماذا ؟ ... ابعد الرحيل ثانية الى هناك ، مع هؤلاء الفتيان الاغرار في آن واحد ... لكنني سبق ان كنت هناك ، في تلك الاماكن ... نعم ارتدتها يوم كان هؤلاء يجرون في الدروب حاملين بايديهم مصيدات الطيور ، ويخطبون ودا الصبايا ، لاعبين معهن ادوار العرسان ... فليجربوا الان هم ايضاً خوض المعارك ... راح اوستين يحث خطاه وسط الشارع ، متعثراً بكتل من الطين الجاف ، ثم اخذ يفكر بنفور محتدم ، مفاجيء ، في هؤلاء المجندين الجدد الذين كان ، قبل قليل ، يشفق عليهم ويشعر بذنب مبهم امامهم .

غير انه سرعان ما ازاح جانباً هذه الافكار والاحاسيس الشريرة ، التي لم تكن قد ولدت في داخله ، بل كما لو انها جاءت من الظلام الذي احتواه مريبه مسترقاً السمع اليه ومتربصاً به .
«وماذا يجرب هؤلاء الفتيان الابرياء ذوو القلوب الطيبة هناك ؟ - وماذا يشفق من جريحه على اولئك الشبان المجندين . - لا اراهم الله شيئاً مما رايتهم وابتليت به ...»

من زحمة الذكريات الحالكة الكثيرة الرهيبة ، برزت امامه واحدة

هي من اشدھن وضوحاً واكثرھن تميزاً وظهوراً ... تلکم هي عملية نارو - فامينسک العسكرية . كان على بطرية المدفعية ان تطلع الى الاعلى وتحتل فوق المرتفع خطأ على الاتجاه الخطير للدبابات . غير ان الالمان اخذوا زمام المبادرة . كان الامر القاضى بمناوشة العدو ومشاغلتھ من المرتفع قد صدر الى سرية طلاب المدرسة العسكرية الذين وصلوا على الشاحنات مباشرة من موسكو الى منطقة تمرکز بطرية المدفعية ... كانوا شباباً نضيرين ، شذبت شعور رؤوسھم باتقان ، يرتدون معاطف قشبية جديدة وجزماً جديدة ايضاً ، ملعة كأنھا اعدت مخصوصة لحفلة رقص ... كان شهر اکتوبر قد اطل : السماء ترذ ، والجورطب ندي ، والوجل في كل مكان ... اخذ طلاب المدرسة العسكرية مواضعھم قرب الاشجار ، جالسين او مضطجعين على الارض مباشرة . كان اوستين ينظر اليھم بقلق واهتمام : مع حلول الصباح ستغدو المعاطف الجديدة مبتلة وملطخة بالوجل ... وشعر بالاسف على المعاطف ! ...

عند انبلاج النور فتحت البطرية النار على المرتفع ، الا انها سكنت بعد مضي عشر دقائق تقريباً ، وذلك بسبب شحة القذائف المدفعية . لم يكن اطلاق النار سوى عامل مشجع لطلاب المدرسة الحربية ، فهو لم يساعدهم الا قليلاً . فقد تمكنوا من الاستيلاء على المرتفع بثوبة اقلية انقضاضية ، ببسالتهم الشبابية ، وبالفزير من دمائھم الزكية ... حرك رجال البطرية مدافعھم الى خط جديد ثم اخذوا بعد ذلك يساعدون طلاب المدرسة الحربية في جمع رفاقھم من القتل والجرحى على سطح التل الذي اجتلوه . شقوا في مكان قريب من الموضع حفرة خائمة الزوايا ، غير بعيدة الغور ، رصوا جثث القتلى في صفوف

مقاربة ، غطوا بأردية من المشمع وجوههم الشاحبة الممتقعة ذات الملامح الفتية القريبة جداً من وجوه الغلمان الاحداث ، ثم طمروهم بالتراب سريعاً . لقد صعق اوستين وفجع لهذه الخسارة الهائلة التي حدثت ، هكذا في لمح البصر ، امام ناظره يوم كان ما يزال يعد حديث عهد بالقتال كجندي مهدف في سلاح المدفعية . وراح يراقب ، بشعور من عدم الرضا ومن الغضب المر الحزين ، كيف اخذوا يهيلون التراب بسرعة على القبر الجماعي لشهداء تلك المعركة ، ملاحظاً في هذا التسرع شيئاً من القسوة الرعناء ، على الرغم من انه كان ضرورياً في حينه : فالعدو كان يربض على مقربة ويستطيع في اية لحظة ان يحول دون اداء الواجب الاخير تجاه الشهداء .

وبالفعل ، فما ان انتهوا من مراسيم الدفن العاجلة حتى اخذت الطائرات الالمانية تعوي في سماء الهضبة ، ملقية قنابلها بدقة وبحقد ، دون ان تنال عقاباً . ارتج المرتفع مترنحاً ، بدا يتبجس بنافوراته الطينية التي بدت كثيفة اللزوجة وشبيهة بكتلة متحركة . اصابت احدى القذائف القبر الجماعي الطري الندي فاخرجت بانفجارها الرهيب جثث الموتى ورمت بها متناثرة . عند الغسق ، بعد انتهاء القصف الجوي وارتداء هجمات جنود المشاة الالمان ، دفنوا ثانية جثث الطلاب الممزقة ، في نفس ذلك القبر الجماعي المشوه ، وبفس تلك السرعة المهيئة نفوس الاحياء من البشر .

بعد ان فرغ اوستين من عمله ذاك ، ترك المساحة الملطخة دماً ووحلاً ، دفن من بعض الشجيرات ، واصيب بالغشيان . كان جسده يرتعش برمته ، واحس كانه عانى في يوم واحد من عشرة امراض في ان

معا .

اقترب من مدفعه ، جلس على صندوق خال من العتاد وبدأ يبكي ، بصوت خافت ، في الظلام . كان طلاب المدرسة العسكرية يتراءون له ، واقفين قبالة عينيه المغمضتين ، متوردي الاذان ، مشدبي الشعر تشذيباً متقناً ، في معاطف جديدة ، وجزئات ملمعة تلميعاً عيـد . حاول ان يتذكرو وجوه الذين استشهدوا واصواتهم ، ان يعي جميع التفاصيل المتصلة بحياتهم تلك المفرطة القصر في بطرية المدفعية وعلى وجه البسيطة ، ان يحتفظ بهم جميعاً في ذاكرته لأجل احدا ما ... وسرعان ما وجد نفسه يلتقي في عالم الخيال بأمهات الفتيان الشهداء ، متمثلاً كل واحدة منهن على انفراد ...

«ولكن لا بأس ... توكلوا ، متبعكم الله برحلة ميمونة !...» اخذ اوستين يلقي على السنة الامهات عبارات النصـح والتمنيات الطيبة التي تقال عند التوديع . - المهم هو ان تظلوا على قيد الحياة ، اما البقية فسهلة ، تتصلح ...

تسللت بمحاذاة السياج اجسام بشرية ، وحين انتشلتها من غيبوب الظلام اشعة الضوء الساقطة من احدى النوافذ ، تبين ان هناك فتى وفاتة . هما يتبادلان القبل في آخر امسية لهما معاً . اما انا فأخيفهما بهن ان اقصد ذلك ... ها هما يفرقان مثل حمامتين ، متنقلين من مضطربة الى اخرى ... صرت حتى نفسي اخيفها ، وعما قريب سوف اجعل من ظلي اخبأ ...» - فكر اوستين عابساً متجهماً ، واحس ان شيئاً ما يكبس في صدره حد الانكماش ، من فرط شعوره بوحدته الغريبة الشاذة وسط الناس .

دخل اوستين منزله الذي بدا له ، تحت الضياء الواهن الضئيل المنبعث من السراج الزيتي العتيق ، واطناً وضيقاً بالقياس الى مسكن والده القسيح ، غير ان الوضع داخل الغرفة كان عامراً ، مريحاً ... كان الولدان نائمين . اقتربت فروسيا من مائدة الطعام وهي في قميص النوم ، هيأت العشاء بسرعة وجلست قبالة زوجها المعن في صمته ووجومه ، ابتسمت له ناعسة الطرف ، ثم عادت الى فراشها .

تناول اوستين طعامه بتثاقل وفتور ، مصيحاً بسمعه لشيء ما بعيد ، مما كان خارج حدود الدار ، خارج نطاق الصمت المخيم بسكينته على المنزل ، فراح يتخيل عويل النسوة وتحبيهن المفجع الذي يمزق الافئدة ويفتت الاكباد ... انه نحيب الامهات الذي سينطلق غداً غد ، لحظة تشييعهن فلذات قلوبهن من المجندين الجدد ...

أطفأ القنديل . بلغ ، متعزراً في الظلام ، سرير النوم وأوى بلطف وهدوء الى فراشه ، مضطجعا لصق جسد فروسيا الدافئ المتأخي ... مرت براحتها على خده الخشن خشونة ورق الصنفرة وشرعت تهمس بما يشبه الصلاة

... ها انك قد أجهدت نفسك في العمل ، لم يبق من وجنتيك سوى عظميها الناتئين . اه ، يا الهي ...

مسك اوستين يدها الدافئة ، اراحها على صدره ، غطاها براحة كفه الثقيلة واغمض عينيه مطمئناً مستريحاً ...

«لو همست في اذنها مرة واحدة !... أبي قد وثقت به ، أمنت على سري . وهذه ، انها زوجتي !... آه ، لو تقاسمنا الاثم معاً !.. فلعل ذلك سيخفف عني ...» فكر اوستين تفكيراً معقولاً وتذكر حكاية يريدخين المزعجة السمجة عن فروسيا ، تلك الحكاية التي صارت زوجته بعدها احب في نظره واغلى ، بل وانها قد سمت عليه ، في شكل من الاشكال ، بذاتيتها ، باستقلالية شخصيتها الانثوية التي ازدادت رهافة وحدة في ايام الحرب ، وصرامتها وجديتها .. كلمة واحدة لو همست بها همساً !.. لا تستطيع ؟ لقد النصقت مصاً بهذه الحياة ، تنقصك العزيمة للتملص منها . وذلك شبيه باقحامك نفسك ، من جديد ، في هجوم تحت وابل من الرصاص ...»

... فجأة انجلي امامه ، صافياً صفاء شديداً ، وجه المقاتل المدفعي الكثيف الحاجبين كاميل ميرغالييف ، ذلك الجندي المقدام المقحام والحادق اللبيب ... أو ان اشتداد وطيس المعركة ، كاميل الذي سرعان ما يغدو ، بعد خمود نارها ، انساناً آخر ، ساهياً شارداً ، لا يدرك مما يحوله شيئاً حين يلجأ مستنداً الى جدار الخندق او المخبأ ، مقرصاً ، يكتب رسالة الى خطيبته نورية ... كان ذات مرة جالساً ينظم درره البليغة اليها والدخان يتصاعد من تحته . «أولست انت الذي تحترق ، يا كاميل ؟ - هزه بعض رذانه الرابضين معه في الخندق . - الا يبدو ان معطفاً ينبعث منه الدخان ؟» - «ولماذا معطفاً ؟ انها روحي تحترق» - . تتم كاميل دون ان يتوقف عن الكتابة . لكنه جفل عندما سمع ضحكات

جنود البطرية : قلب احدهم جيب معطفه الداخن فسقط منه على الارض عقب سيكارة ما زال مشتعلأ ، كان كاميل قد دسه في جيبه سهواً ... وفي الصباح ، حينما اندفعت دبابات العدو - فجأة وباعداد كبيرة - نحو البطرية ، عاد ميرغالييف ، في لمح البصر ، نشيطاً حثيثاً ولبقاً دقيقاً ... قاتل بجسارة وبسالة وكأنه يحاول في ذلك كله ان ينتزع من العدو وسويعة هدوء واستراحة يكتب خلالها رسالة باشة الى حبيبته النائية نورية . كان كاميل ، وهو يبدع رسالة ما الى خطيبته ، عادة ما يحرك شفتيه قليلاً ، يتشسم ابتسامة ناعمة رقيقة ، كأن ليس امامه قصاصة ورق صغيرة دقيقة ، بل نؤارة مدهشة عجيبة ... اين هو الان كاميل ؟ احي يرنق ؟ ... وقائد الكتية استاشكوف ، «الاب الروحي» ذو الاربعين عاماً لأسرة البطرية ؟ لقد كان ديدنه ، كخير اشرى وشغيل متحفي سابق ، ان يسعى ابدأ الى اعادة ترتيب الامور في ذاته . كان يحب الهدوء والسكينة . لم يكن يأمر رجال المدفعية الذين هم تحت قيادته ، بل يرجوهم ... إلا انه كان ، في الوقت ذاته ، رجلاً صلباً : سيد قراراته ... يأمرك دونما ضغط او اجبار ، لكن بطريقة لا يمكنك معها ان تتعاس عن تنفيذ امره ، لان ضميرك سيضيق حينئذ عليك . وفي تلك المرة ، في معركة أولخوفاتكا ، حين كانت دبابات الالمان على بعد ما يقرب من مئتي خطوة فقط من البطرية ، لم يضطرب استاشكوف ولم يكثر من الحركة . كان يسير منحنياً انحناءة خفيفة ، من مدفع الى اخر ، باعناً النشاط والجرأة في الجميع بوجهه الصارم الرصين ، معيداً العبارات التي قالها قبيل المعركة : «ارجوكم ، ايها الشباب ، ان تثبتوا . ارجوكم ... واذا اقتضى الامر فاطلب منكم ، راجياً ، ان تموتوا ...»

ولكن اثبتوا !

اين هو الان استاشكوف ؟ هل يعلم من امري شيئاً ، هل يتذكرني ؟ .. وبطريقنا ؟ ليقني القي عليها نظرة ! .. ترى كيف هي الان هناك ؟ ... لقد مشيناها عبر المستنقعات الموحلة ، خلال الزوابع الثلجية المتدفقة ... السوداء من فرط الحقد ومن سناج البارود ، المتصممة من نتانة اثار الحرائق ... مشيناها شتاءً وصيفاً ، في الاجواء الخريفية الملبدة بالغيوم وفي الدروب الموحلات ابان الربيع الماكر البهجة ... تحت اشعة الشمس المشرقة كنا نحرس السماء بعيوننا ومتوننا وبما يعترينا من خوف مألوف ، وفي ضوء القمر كنا ، ونحن لا نكاد نغمض عيوننا ، نتجمد في قعر خندقنا ، ملتصقين بالارض العارية المكشوفة ... وعند اشتداد الحركان يلغنا الاتهاك والضنى فنتلطف لقطرة ماء ... ونتباله فرحاً من رائحة معاطفنا وجواربنا ولقائف ارجلنا ، المبللة التي جفقت على لهيب النار ، ومن الانفاس الحبيبة الغالية المنبعثة عن قطع الخبز المتجمدة التي سرعان ما تنتعش ويعود اليها الدفء بين اسناتنا ، ومن المذاق المقرف لمشروب الفودكا البارد الحديدي الطعم ... في كل لحظة كان يمكن ان نقع تحت غائلة الرصاص ، ان نحترق ، ان نتمزق ارباً و تنتاثر قطعاً ... ولكن لا بأس ، جاءت سليمة ! ... لقد حططنا العدو مكاتفين ، كنا نعرف سبيلنا . اما الان فليس امامي سوى حارب واحدة ، هي ان ادخل في صراع مريم مع نفسي ! ...

ضم اوستين يدها الى صدره ثم راح ، بعد ان طرح جانباً تلك الافكار التي تخز النفس وتصدع الرأس ، راح يمخرعائماً في نومه ... كان محموماً ، اخذت تجري في ظهره تيارات هواء رطبة . كان مدثراً

بشيء ما دافى ثم شرع يخطو بدون توقف ، لكن بعسر وقسر ، الى امام ،
نحو جبل الجمل ذي السنامين ، الذي برز من خلال الضباب البارد .
شعر - عبر مقلته المتجمد الخدر وغير قذاله - ببرودة نظرات الحشد
الذي كان يسير خلفه ، مرافقاً وخافراً : كان في الحشد ثمة وجوه كثيرة
مالوفة لديه ، لكنها كانت تعبر جميعها عن صرامة خرساء مبهمة وعن
ادانة وشجب ... وكان في مقدمة الحشد كل من قائد الكتيبة
استاشكوف ، المقاتل المدفعي ميرغالييف ، ثم طلاب المدرسة الحربية ،
يسرون كلهم بئان وبطء ، لكن بثبات وحزم ، حاسري الرؤوس ، في
معاطف مفكوكة الازرار . وبعدهم سار اطباء المستشفى العسكري
وممرضاته ، بأرديتهم الطبية البيضاء ، يتبعهم بالتعاقب كل من قاطني
قرية كليوجوفكا : ستيبان ، فاسينين ، فيودور بيريديشين ،
نيوركا كوريوشينا ، كوزمادانيلوفيتش ، كوستيوشكا المحاسب ،
ميخائيل اغابوف ، متوكلناً على عكازتيه ، وجميع الاحياء والاموات
الذين عرفهم - هو اوستين - ، رآهم ، التقاهم يوماً ما في حياته ...
اجتمعوا كلهم هنا لأجله ، بسببه ... وعلى وجوههم كتب القرار الذي
اتخذ سلفاً بشأن مصيره المحتوم . كانت الوجوه صرامة ثقيلة ، خالكة
مستغلفة ، لارحمة فيها ولا غفران . وكلما ارتقى خطوات أعلى وابتعد في
الجبل بدت النظرات الموجهة صوبه اشد صرامة واصعب مراساً . كان
الناس سائرين ليقتلوه ، ولديهم الحق في ذلك ... في اعالي القضا كانت
تخلق ، متتابعة ، ساعات نواقيس الكنيسة ذات الرنين الخافت الحزين ،
التي أربكته الريح . وفي ورشة الحدادة ، التي ظهرت مكشوفة بكاملها
وعانها من زجاج ، كانت الاصوات تولد وتتمويط اطراد ... عند السندان

يقف بانكرات مرتدياً قميصاً أبيض اللون نظيفاً ويلوح بكتابة وإيقاع ،
 كرقاص الساعة تماماً ، يلوح ويضرب بمطرقته ، مجرباً حساباً ما ،
 مشغووماً ، يندربسوء العاقبة المقتربة حثيثاً . توقف أوستين فوق اعلى
 ذروة في الجبل . ليس ثمة من مكان آخر يواصل السير اليه : المنحدر
 الشمالي قد انقطع ، انهار بهوة هاوية شاقولية لا قرار لها ، كسماء
 غبراء منتكسة مقلوبة . كان يهب من الهوة هواء بارد مشيع برطوبة
 الارض ، فراح أوستين يتدثر مرة أخرى بدثار ما . لكن سرعان ما اقترب
 منه اثنان من طلاب المدرسة الحربية ثم شرعا ، بعد أن امالا وجهه نحو
 الحشد ، يخلعان عنه ملابسه ... كانت الملابس كثيرة فنزعاهما عنه كما
 تنزع الاوراق عن رأس كرنبة . « انظر اليه كيف توارى ، لكن لا
 بأس ... » - متمم احد الطالبين . « سنبلغ الغاية ، بأية حال من
 الاحوال ... » - تتكلم الطالب الآخر بحزم ... وبلغا المنتهى ، جرداه من
 جميع ملابسه الخارجية . فوقف أوستين امام الحشد بملابسه
 الداخلية واحس كأنه طفل رضيع استل من مهده الدافئ وجرّد من
 قماطه في جوزمهريزي قارص .

خرج من بين الحشد ستيان فاسينين ، استل من جيبه ورقة واخذ
 يقرأ . لم يسمع أوستين اية كلمة مما قرأ ، لكنه عرف بالضبط انهم
 يتكلمون عليه قرار الادانة . اراد ان يصرخ ، ان يبين للجميع ، ان
 تسالهم : لماذا تجري الامور هكذا ؟ ولماذا يقف الجميع ساكتين ، الا
 من كلمة يقوله اي من الحاضرين ؟ قفوا ، ايها الناس ... !
 انتظروا ... !

في غضون ذلك انتهى فاسينين من القراءة ولوح ، امرأ ، بيده

الوحيدة ، فتقدم نحو أوستين اثنان من الجنود المجهولين ، رفعاً
بندقيتيهما ، إلا ان أوستين هوى ساقطاً على ظهره في اللجة الثلجية ،
دون ان ينتظر اطلاق النار . ولم يدرك ، وهويتهوى ، أكان يفكر ام انه
بدأ يصرخ فعلاً : « ما .. 1 ... ما! » ، لكنه سرعان ما وجد نفسه وقد
امسكت به يدا ان مجهولتان .

- أوستين ، أوستين !.. ما بك ؟.. أهوانت الذي ناداني ؟ أنت ؟ -
هزته فروسيا وصرخت .

القرم الصمت . ولم تعرف فروسيا ، وهي لا ترى في العتمة وجهه ،
ماذا حل به . فراحته تخضه ثانية وتساله :

- أوستين ، كنت الان تغفم ، تصرخ ، تنطق بعض الكلمات ، اليس
كذلك ؟ أم انني كنت أحلم ...

وثبت فروسيا من فوق أوستين ، منزلقة عن السرير ، عثرت على
السراج واوقدته بيد مرتعشة . راحت تطالع ، متوجسة ، اركان الغرفة
المعدمة وكأنها تفتش عن ذلك الشبح الذي كان قبل لحظات في مكان ما
من الغرفة ، كان يسمع يحس ولكن ها انه قد تلاشى ، ذاب في شبه
الظلام الناعس المخيم على الدار .

تساولت القنديل ، دنت من السرير ، وبعد ان اصضعت به وجه
أوستين ، دارت على مهل ، مشوشة المظهر ، حاملة بيدها القنديل ، في
الدار ، ملقية نظرات ارتياب على الجدران والنوافذ والسقوف ...

- أف لك ، عليك اللعنة !... انفجرت الباب ، وما هو تيار الهواء
يتحير الى اسفل ... تكلمت بصوت خافت ، دون ان توجه الحديث الى
أحد ، مبهدة بصوتها عن نفسها ذلك الرعب الخرافي الذي كان يوسوس

في صدرها .

اغلقت الباب باحكام ، اطفأت السراج وعادت الى الفراش ، لائمة
نفسها ان قد اثاربت في الدار ضجة ... «انى له ان يتكلم اذا كان مسلوب
اللسان ؟! .. اما نحن فليس لنا سوى ان نتخيل ، وان نحلم ... لا
أبدأ ... ما دام الله قد قضى على اللسان»

ذات يوم ، طلب مدير المزرعة التعاونية من أوستين ان يذهب الى
 زريبة البقر ، لترميم سطحها الذي بدأ ينحرف ويتداعى ...
 عند الظهيرة وصلت حلابات البقر الى هناك . راحت تدور بالقرب من
 فروسيا بعض الصبايا اللواتي يعرفهن أوستين : ناستيا أغايوفا
 والصبيتان الصهبوان ، كزهرتي عباد الشمس ، جينيا وأوليا ،
 المهجرتان من مدينة يسكوف . كان عمر الاولى ثماني سنوات والثانية
 تسع سنوات . ولم يظهر والداهما حتى ذلك الحين ، كما هو الشأن مع
 بعض اللاجئين من الاحداث الاخرين الذين يعيشون في قرية
 كليوجوفكا .

- أوهو ، فروسيا ، أرى انك قد وجدت عنك بديلة ، أليس كذلك ؟ -
 هتفت مشجعة ، واحدة من الحلابات .

- نعم ، صحيح ... فانا بحاجة الى اسبوعين اللعب فيهما مع هذا
 الذي ... ردت فروسيا في شيء من البهجة القابلة للعدو والتبرير ، وعلى
 محياها سيماء الحيرة والغيرة وهي تحجب بالمحلاب بطنها المدور الذي
 وترداعها ومطه مطاً شديداً (منذ ما يقرب من عامين ونساء القرية
 متوقفات عن وضع المواليد الجديدة) . - يعني ، أريد ان أرغب ناستينكا
 في بقراتنا السمر الداكنات . هي الان تستطيع ان تحلب البقر ... لما تعد

صغيرة ، فقد نجحت الى الصف السادس .

عندما بدأ الحلب توقف اوستين عن الضرب بمطرقة ، نزل من سطح السقيفة وذهب الى فروسيا التي كانت واقفة مع الصبايا قرب البقرة الضخمة الرقشاء ذات العينين السوداوين البلوريتين النديتين . ابثسنت له فروسيا ، دون ان تتوقف عن حديثها مع ناستيا :

... ليزونيا بقرة وديعة ، طيبة كريمة . حين تحلبينها تشعرين بالارتياح والرضا ... اما تلك التي عند السياج فاسمها جاروديكا ... انها نشيطة مأكرة وعنيدة مشاكسة . تحب دائماً ان تغرفها على رغيف الفير ، تلصق أولاً علف جارتها ثم تاكل بعد ذلك علفها . اسمعي ، ناستينكا ، لا تذهبي اليها في البداية فارغة اليدين ... لن تتمكني عندئذ من حلبها . هكذا علمتني أمي في سني شبابي : لا تربتي على البهيمة براحة كفك ، بل يحفنة من دقيقتك ... وهاكم انظروا زفيوزدوچكا ، تلك التي تشرب الماء من المشرب . انها في اول نتاجها وتحتاج الى معاملة لطيفة بوجه خاص ... ها ، لقد راتني فبدأت ترسل خوارها ، هي الحبيبة العزيزة . هل سمعتها كيف تخور ؟ انها تنادي وتتشكى . هيا بنا ، يا بنات ، نذهب اليها لتحلبها أولاً ، هي الغالية ... رومانسكا ، زوريانكا ، روغوليا ، كراسوليا^(٢٢) ... وشعر اوستين ،

٢٢ - هذه الاسماء التي اطلقت على البقرات لها دلالاتها المعنوية ... وقد جاءت - في معظمها - بصيغة التصكير لغرض التلميح والتجيب ... وفي أدناه ما يقابل كل من هذه الاسماء باللغة العربية :

ليزونيا (اللاخسة - لحوسة) ، جاروديكا (الساحرة - سحورة) ، زفيوزدوچكا (نجيمة) ، رومانسكا (القوانسة) ، زوريانكا (الثاقبة - ثلوبة) ، روغوليا (ام القرون) ، كراسوليا (ملبحة) .

وهو يسمع كيف تذكر فروسيا ، بحنان وملاطفة ، اسماء البقرات
الفتيات شعر فجأة بالغبطة تجاه تلك الحيوانات ، وبغيرة مبهجة
تجاه زوجته . «لشدهما تبدو ، هي نفسها ، مشتاقة الى كلمة حنان
الاطفها بها !»

ولكنه هو الآخر نادراً ما يسمع الان اسمه يدور على شفيتها / انها
تبخل كثيراً وتقترب جداً في استعمال الكلمات عندما تخاطبه ، مستعيضة
عنها - مثله هو - بالاشارات والايماء ... لقد حاولت بجميع الوسائل
ان تظهر نفسها في مستواه ، كما لو انها لم تكن لترغب في ان تذكره
بتفوقها والفضليتها . ويدافع الرأفة به كانت تبدو امامه وفي صحبته
وكان قد اصيبت تدريجياً ، هي الاخرى ايضاً ، بالصمم والبكم . اللهم
الا في لحظات التقارب الليلي بينهما ، حيث كانت تناديه احياناً باسمه -
كما في السابق - اوستيوشا ، وتهمس في العتمة إمالة اول نفسها ،
ببعض كلمات الحنان الرقيق المتشعبة المتقطعة . غير ان هذه الكلمات
كانت تثقل عليه اكثر مما تريحه .

جلست فروسيا ، بحذاقتها المألوفة التي بدأ يلوح عليها الان ذلك
التأني المحبب الذي يميز النساء الحاملات عادة ، جلست الى جوار
البقرة ومسحت ضرعها بقطعة من القماش . ربت اوستين على كتف
زوجته واراد ان يذهب ، الا ان حديث الصبايا قد اوقفه .

- ولكن ، لا تخافا ! اخذت ناستيا تطمئن الصبيتين الصهباوين
جينيئا واوليا ، اللتين تسمرتاهللاً وسط البهائم المختلفة الالوان ، التي
انافت عليهما ، كالكتل الصخرية ، من كل جانب . فالبقرة كالبشر ، يفهم
كل شيء . سوى ان هناك فرقاً واحداً فقط بينهما ، هو ان البقرة لا يملك

القابلية على النطق . لكن هذا ليس بالامر المضيف ... فالعم اوستين هو
ايضاً ليست عنده الان هذه القابلية ، ومع ذلك فلا بأس .

- هذا افضل له : اغيظه كيفما تشائين ، اشتميه .. فلن يسمعك
ولن يرد عليك .. غبطت اوستين احدى الصبيتين الصهباوين التي غدا
لونها الساطع - كما يبدو - مادة للحديث بين الصبيان في قرية
كليوجرفكا .

- لا ، هذا ليس جيداً له ، ابدت الصبية الصهباء الثانية
اعتراضها . فهو لا يعرف كيف تخور زفيوزدوچكا ، وكيف تضحك
الخالة فروسيا .

حدثت الصبايا بنوع من الفضول الكئيب الى وجه اوستين من
اسفل ... اما هو فقد وقف - لامرماً - ازاءهن بكتفيه الهابطتين هبوطاً
صاعراً ، كما لو انه يفسح لهن المجال بان يملين النظر منه وكأنهن امام
اعجوبة من الاعاجيب . بيد انه لم يعد يواصل الانصات ، ابعد من
ذلك ، الى حديث الصبايا ، استدار استدارة حادة مفاجئة ثم انصرف -
متحاشياً البقرات - لمواصلة عمله ...

في شهر نوفمبر ، استلم اوستين اعلاماً بالحضور الى مقر اللجنة العسكرية . وفي اليوم نفسه غادر الى مركز المنطقة . لقد جعله هذا الاستدعاء السابق لاوانه يحرص اذنيه ، يكون حذراً متيقظاً ، لأن لجنة اعادة النظر في قضايا المعوقين يجب ان تعقد جلستها الخاصة به في شهر شباط . فلأي غرض ، اذن ، يطلبون اليه الحضور الى مركز المنطقة عاجلاً ؟ ثم ، لماذا الى اللجنة العسكرية بالذات ، وليس الى جهة اخرى سواها ؟

وفجأة تشبّثت افكاره بالمحاسب كوستيوشكا : « لعل الذي ثرثر هو انت ، ها ؟ أتريد ان تلوّث سمعتي ، ان تشهر بي ؟ هاك ، اقض بأسنانك !... لن يكون الامر كما تريد . أنا بنفسى سأفعلها ، هل فهمت ؟ بنفسى ، وليس بالوشاية ، بنفسى سوف اقر بذنبي ... اما دون ذلك ، فحتى وان احرقتنى بالنار فلن اقول شيئاً ، لن اسلم بعاري ، لن اقر عينيك ، ايها الاخرق اللئيم ، ياذا الساق المشوهة العرجاء ... »
- ها ، ديخ !... !... اجصري ، حيايتي !- صاح ، مشجعاً نفسه ، بالفارس التي كانت تجر العربية ، ولم يعقه احد هنا ، في البرية الخالية من البشر ، عن ان يبتهج ابتهاجاً حاراً بصوته وبسمعه .
في مقر اللجنة العسكرية ابرز للضابط الخافورقة الاستدعاء . قاده

الملازم الأوزبكي الاسمر الوجه ، ذو الساق الظالعة ظلوعاً شديداً ،
قاده عبر ممر ضيق الى عمق المبني ... بفترة ، اخذت تتساقط من على
ضروب عديدة ومختلفة من الطسوت والسطول والدلاء والقذور ، محدثة
دوباً ولعلعة ورنيناً ... ارتد الملازم ، واثباً ونظر نظرة سريعة الى اوستين
الذي راح يواصل السير بثبات ورباطة جأش .

- أه من عاملة النظافة ، هذه الخالة كلافاً ... انها تكدس دائماً
طناجرها^(٢٣) في هذا المكان !- صبّ الملازم لعناته وهو يرفع احد الاواني
من فوق الارض .

وصل اوستين الى نهاية الدهليز . ومن هناك اخذ يراقب الملازم
ويترصده بتشبيث وعناد . لقد نصبت ، ايها الاعرج ، شركاً خبيثاً
خبث الفجل البري ... انك انت الذي فرغت منه . اما انا فانظر ، لم
يرف لي جفن . انا اصم ابكم ... هل فهمت ؟ انني لا اسمع شيئاً ، حتى
وان قذفت علي القنابل بدل السطول ...! وخير لك ان تنتهي من هذه
الاختبارات والفحوص ... وما دام الامر كذلك فلن تحصلوا مني على اي
شيء .

كانت تتوهج في داخل اوستين ، دائماً كرامة متهجدة متيقظة ، لكنها
مجروحة بيده هوداته . لقد احس احساساً حاداً للغاية . وعلى غرار ما
صار يحدث له مراراً عديدة في الايام الاخيرة ، احس بأن هناك خطراً
يدهمه فاستعد للدفاع بصلاية وعناد عن نفسه .
لم يكن ثمة من احد في الغرفة التي بلغاها معاً ، لكن اصواتاً كانت

٢٣ - الطناجر : القذور (مفروها : طنجرة)

تسمع خلف باب الغرفة المجاورة . انصرف الملازم وهو يري أوستين مصطبة قرب النافذة : اجلس هنا وانتظر حتى يستدعوك .

خرج من الغرفة ضابط اشيب ذو نظرة صارمة ، في وسطه نطاق مسلح . ابتسم بتحفظ ويتشاؤم ، كما لاح لأوستين . وبعد ان حياه مصافحاً طلب منه ان يتبعه . «ايه ، بدأت !...» خفق قلب أوستين خفقاناً مضطرباً ، الا انه قمع خوفه بسرعة وراح يخطو وراء الضابط دونما وجل . لكن لا بأس ! لن يكون هناك ما هو اشد هولاً مما ذهت وجربت . لن يوجد ما هو افظع ، قطعاً ... لقد استطعت ان احجب بجسمي كلاً من موسكو وستالينغراد وكورسك ، ايها الرفيق الرائد .. بعد مضي نصف ساعة كان أوستين يهتز كرة اخرى فوق عربة النقل ، عائداً من مركز المنطقة الى قريته . راح ينظر ، بعينين معترتين من فرح مدمع مقلق ، الى ما حوله من بقاع ممتدة بكأبة وامتهان على مستوى واحد من التسطيط ، الى اكاداس القش الجديد ، والى الحقل الذي بدا ، بعد ان جرد من غلاله ، موحشاً تلقي عليه الريح مبعثرة فوق جذاماته^(٢٤) غرباناً شجاعاً صامته واجمة ، كأنها قطع من اوراق سود صغيرة .. واحس أوستين انه مذنب وخزيان جداً فيما اتاه من خداع وتدليس .

في اللجنة العسكرية قلده توط «الشجاعة» لبسالته واقدامه . وكان أوستين قد رشح لنيل الوسام منذ شهر تموز عام ثلاثة واربعين ، وقد نسي هذا الامر . وها ان النوط قد ادركه بعد مضي اكثر من عام فابهجه واقلقه حد الدمع . «كان من الافضل والاكثر ملائمة لو استلمته في

٢٤ - الجذامات . بقايا سيقان (أو اعواد) الغلال المحسودة .

حينه ، يوم كنت هناك في الجبهة ، وليس الآن . كان لي حينذاك صدر آخر ، غير هباب .

في الطريق المواجه كانت تصادفه احياناً قوافل من العربات مشحونة بأكياس الحبوب . كانت وجوه النسوة والاحداث الجالسين في العربات متعبة ، لكنها مزهوة . وهذا الزهو انما اصفته عليهم تلك الاكياس التي كانوا ينقلونها وذلك الصريف اللذيذ الثقيل الذي كانت تحدثه عجلات العربات وكأنها تنن تحت اعباء تلك الاشياء الثمينة التي كانت تحملها ... كان كل شيء في الطبيعة يعبر عن مهابة هائلة : ان الحقول والسموات قد التمسست ، تكريماً للبشر على جهدهم وكدحهم وغيرتهم ...، التمسست الصمت والسكينة ، غارسة هدوء الخريف في حركات الناس وسكناتهم وفي أحاسيسهم وافكارهم ... وان الشعور بهذه الراحة والطمأنينة في دوامة الهوم والشواغل العسيرة ابان الصيف القروي ، كان من الامور المألوفة جيداً بالنسبة لأوستين ، وكان يتلقاها دائماً كشيء ممتع وملثم . وانه الآن يملك الحق في مثل هذه الراحة ، هذا المتنفس الخريفي في العمل ، لأنه لم يرحم نفسه ابداً أيام الحش والحصاد ، لم يوفرها اية راحة اطلاقاً . لقد ارهقها واعياها تماماً في سد وترميم الشقوق والفتوق اللامتناهية ، المتفاقمة على المزرعة التعاونية التي ندر فيها الناس . كان اوستين هو الخصّاد والحدّاد في أن معاً ، وكان الناس يعتبرونه انساناً قوياً مكيناً عظيم الصبر والتحمل ... وقد غطى العمل عنده على جميع مشاكل الذات التي كانت تشتد لديه - كداء لادواء له - في اوقات الفراغ بالذات . وهذه الوحدة الصامتة التي استغرقت ساعتين في الطريق المتدفقة على امتداد الحقول الخريفية

الموحشة ، التي بدت وكأن قد فترت فيها ، مخصوصاً ، جميع الالوان والاصوات ، لكيلا يشغل الانسان عن التأمل والتفكير ، هذه الوحدة قد ارهقت اوستين وانقلبت كاهله كل الانقال . واخذت فرحته بالنوط تخبو وتتضاؤل شيئاً فشيئاً ، لان الوسام لم يستطع ان يحرره من معاناته النفسية الرئيسية .

صار ينتفض وقد اخذ منه الاذى الذاتي المعتمل في داخله مأخذه ، ثم راح يصرخ فجأة بصوت واهن وكأنه يوجه كلامه الى شخص ما ، مستدلاً ومبرهنأ : «قلت لك لا تلمسه ، هذا الوسام !.. لقد دفعت عنه ثمنأ باهظأ من دمي ، لقد نلته بعد قتال دموي مميت . ان وسامأ كهذا خالد الى ابد الابدین ...»

لف عنان الفرس على قبضة يده وأوى الى مفرش من القش مؤملاً ان ينسى ، ان يستسلم الى سنة قصيرة من النوم . غير ان مقلتيه ظلتا تنظران ، دون ان يرف لهما جفن ، الى الطريق التي راحت سنابك الفرس تذرعهما بكلال واعياء ... سار بالعربة طويلاً على هذا المنوال من ذهول السبات المشوب بالقلق . ثم وقف بغتة على ركبتيه ، ضرب كف الفرس بالعنان وشرع يصرخ مخيفاً نفسه والفرس معاً :

- هيا اجري ، ا... ايتها الشقراء ! لا حاجة بـ ... بنا ! ... الى الرقاد والشجن . عـ ... عندنا الان عيد !... لوكناف ... في البطرية لعيننا من زمانٍ سـ ... سطلأ بكامله من الكحول . ا... اما هنا ... فيا انشوطة التقي عـ ... على رقبتى !... ليت الشيطان بـ ... ياخذني ! ... الى جواره !...

شرعت الفرس تجري بخطوات واسعة . اما اوستين فقد بدأ يفني

بضراوة ، بصوت خشنٍ عالٍ وبكل ما في صدره المجهد والمتكمش صمناً ، من قوة :

- اصطبغ القمر ب... بلون أرجواني .

امواج البحر اناش ... شاهدتها ...

أوقف العربية قليلاً قبل ان يدخل قريته ، بدأ يدخن مفكراً في امر ما .
ثم فك ، من قلبة سترته ، وسامة الذي راح يلعب تحت اشعة شمس
الاصيل لمعاناً ساطعاً ووضعها في علبة الصغيرة المغلفة .

قرب دار اوستين كان يقف كوزما دانيلوفيتش منتظراً على احر من
الجمر اوبة ولده . وحين راه مقبلاً خف مندفعاً لاستقباله .

- لقد ضاع بصري من كثرة التحديق ، يا اوستين . منذ اول الغداء
وانا واقف هنا انتظر مترصداً ... يا الهي !... إيه ، ما وراءك ؟ ... لماذا
استدعوك ؟ وكيف سارت الامور ؟ - بدأ كوزما دانيلوفيتش يهمس
همساً مرتعشاً وهو يتشبه بالعربة .

- نه ... فوجلاً قلدوني - ردّ اوستين بهدوء وبنبهة لا تخلو من مباهاة
واعتراز ، وهو يوقف العربية امام الدار .

- دعك من المشاكسة الان ، هيا ... انا أسألك جاداً . قلبي يقطر
دماً ، وانت تهزل .

- لست هازلاً . هاك انظر ! ... إليه ... ! ... إنه النوطحقاً ... اخرج
اوستين العلبة الصغيرة من جيبه وفتحها ... 1 ... انظر ، ما ا ... أجمله
من نوط ! ... ف ... في الجبهة لم يلحقوا ا ... أن يقلدوني ! ... إياه ف ...
فلحقني ! ... إلى هنا ...

نظر العجوز الى الوسام بفرحة يشوبها خوف ، مرّ عليه بأنامله

الخشنة وشرع يهمس :

- انظر كيف قاتلت بشجاعة ، بحيث اصبحت الاوسمة تتبعك حتى
عقد دارك ...!

- في المساء ... تعال ، يا ابي . وسأدعو اناساً اخرين . سنجلس
نـ ... نثرثر بعض الوقت ، نـ ... نفصل الوسام . نـ .. نشرب نخبه .
فلقد كان الحصاد جـ ... جيداً هذا الموسم ، ثـ ... ثم الوسام ها
هو ... سوف نـ ... نروّج عن انفسنا قليلاً ، سوف نـ ... نغني .
سنمت العيش صـ ... صامتاً طوال الوقت ، نـ ... نفسي تريد بعض
الراحة ...

نظر كوزما دانيلوفيتش الى ولده بتناقل ، نظرتة الى امرىء مريض
اذا لم تقدم له يد المساعدة فلربما تدركه الازمة او التوبة ...
- انك تستطيع ان تفرح وتبتهج في اي وقت تشاء . وليست المسرة
كلها في هذا الوسام ... ها ان سيمكا غروليوف عنده اوسمة اكثر منك .
ولكن ، ما الفائدة ؟ منذ خمسة اشهر - اسمع !- خرمت الشطايا
صدره تخريباً لا سبيل الان الى تربيعة ، لن يرغم أبداً . ان سيمكا
يذوي كالعشب في قبو معتم . لن يطول به الاجل اكثر من سنتين ...
بقيا صامتين بعض الوقت .

- اسمع ، يا اوستين . الفرس لا تحررها من عدتها ، بل توجه فوراً
لجلب اثنائك . سوف نقوم بنقل كل شيء قبل حلول المساء .
لقى اوستين نظرة مقطبة عابسة على وجه ابيه الشاحب ، ذي
البشرة الشفافة السقيمة ، ثم اشاح عنه متأملاً .
- اترى ان بيتي غير لائق ، ثم انك تريدني ان اموت عاجلاً ؟ ...

تكلم ، يا بني . لماذا أنت ساكت ؟ ان الدار هي الان ملكك بالوثائق والمستندات . بإمكانك ان تسمح لي بالعيش معك ، وانت حر في ان تقصيني متى ما تشاء !

ومن جديد لفهما الصمت حيناً من الوقت .

- يوم السبت يدعو مدير ادارة المزرعة التعاونية الجميع الى النادي . كان حاضراً الحبوب جيداً وغزيراً . سوف يكرم البعض وانت من ضمنهم ، كما سمعت ... تكلم كوزما دانييلوفيتش ، متقنفاً من اثر الرياح الباردة .

«لن يطول النفس بوالدي كثيراً . يريدني ان احافظ عليه ... كأبن له ، بحكم وشيجة الرحم» - فكر اوستين وهو ينظر الى والده العجوز .

- الاجتماع يعقده فاسيتين في النادي . سيدور الحديث حول الغلال ، حول الجبهة . حول جميع القضايا الدولية . المحاضر ارسلوه من مركز المنطقة . ان الحرب ، هل تسمع ، تشرف على نهايتها . لقد فاتك الوقت في تقديم العون الى الجبهة - كانت تنبعث من صوت كوزما دانييلوفيتش ثقة السيد رب الدار - ايه ، هل يطول بنا الوقوف هكذا ونحن نقشعر في الهواء البارد ؟ هيا أدر العربية ... الحمولة الاولى ستكون للاشياء الاكثر ثقلاً : الصناديق واسرة النوم وما الى ذلك ... اما الافرشة والاواني فيمكن نقلها على الايدي ، بالتدريج فيما بعد . فلنذهب !... يا اوستيوشا ، كفك تفكيراً . ها هي ذي الشمس بدأت تغرب ، هيا نسرع . صعد كوزما دانييلوفيتش الى العربية ، وبعد ان سحب الاغنة زلق بالحصان فأخذت العربية تتحرك .

استطاعوا ، وكانهم كانوا يلعبون ويهزلون ، ان يشحنوا العربية

الاولى ، ثم اردفوها بنقل عربية ثانية .. واذا بالدار قد امست مقفرة خالية ، والنوافذ والابواب متفجعة جزعة في وحشة الظلام والفراغ التي لقت الدار بعد برحها ساكنوها ... على حين ازداد منزل الوالد العجوز ديدوشيف سعة ورحابة وهو يستقبل افراد اسرة الابن التي عجت الدار برنين صخبهم وضجيجهم المحبب ... وانفجر الجميع في حركة دائبة حتى ساعة متأخرة من الليل ، يسحبون الاثاث والامتعة ويصفونها ، موزعين ومرتبين كل شيء ، بعد ان وضعوه في مكانه المناسب . واراد اوستين ان تشغل اسرته غرفة المدخل الواسعة الفسيحة ، لكن والده كان له رأي آخر ، افضل :

- انكم هنا لستم نزلاء مستأجرين ، بل اصحاب الدار . فلكم ان تشغلوا ركن الصدارة . هيا الى الغرفة الاساسية في المنزل ، الى المنظرة ...

بعد ان فرغوا من وضع كل شيء في مكانه ، وتعلق ما امكن تعليقه على الجدران ، مسحت فروسيا ارضية المنزل وبسطت في وسطه السجادة البسيطة ذات الصنع اليدوي المنزلي ، التي سرعان ما راح الصبيان يتشقلبان عليها لاعبين لعبة «دويرة مويرة» ... غير ان زعيق الصبيين وضحكهما وضجيجهما بدا منفصلاً على العزباء فارقاراً هدهوا ووجدتها . لذلك وجدتها تجمع ، في صبيحة اليوم التالي ، حاجياتها وامتعها وتبرح مغادرة الى دار اوستين الخالية التي كانت في انتظارها .

اثناء فترة ما بعد الغداء ، شاهد أوستين ، وهو خارج من الورشة ليدخن سيكارة في الهواء الطلق ، شاهد على الطريق الزراعي زوجين من الثيران يجبران بالحيال شاحنة نقل كبيرة من طراز «ZIS- 5» كانت الثيران والشاحنة تقترب من الورشة . لاحظ أوستين ان ستيبان قاسينين كان منبطحاً على جناح الحافلة ومعتمداً على مرفقه وفي يده سوط يلوح به ، وأن نيورا كوريوشينا كانت جالسة في الكابينة خلف عجلة القيادة .

توقف الركب وسط الشارع ، مستديراً باتجاه ورشة الحدادة . وسرعان ما اندفع من هنا وهناك : من وراء الاسيجة ذات الاغصان المجدولة ومن خلف الابواب المختلفة . اندفع الصبيان ملتفين حول الشاحنة ملتصقين بها من كل جانب ، داخلين في جوفها المخرق بفعل شظايا القذائف ، راكبين على اجنحتها الصفيحية المجعدة التي لم يترك الرصاص فيها وفي الزجاجاة الامامية موضعاً إلا اخترقه اختراقاً ... وجاءت النسوة ايضاً يتفرجن بفضول وحب استطلاع على شاحنة «الريس» كما توقف عندها الحارس العجوز كوزما دانيلوفيتش ، وسكرتير مجلس شورى القرية سيمون غروليفوف ...

— اية سيارة هذه التي لا تستطيع ان تسحب حتى نفسها ؟! قالت ،

مستغربة ، احدى العجائز ، وهي تتفحص الشاحنة بعمش ..
- سوف تسحب ، يا جديتي . ولسوف ترين اي سحب ! - اجاب
فاسينين بصوت عال وبحموية ...، واثباً من سلم الشاحنة ، قاتحاً -
بصريف - باب الكابينة التي لوحتها الشمس تلويحاً . ثم راح يقدم ،
باحتراف ، نيوركا كوريوشينا . - هاكم الربة والربانة المنتظرة لهذه
الحافلة الحسنة ... سوى ان ظاهرها قد اعطب في المعارك الحربية ،
لكن لا بأس ، هذه أمور طفيفة ... الجوف سوف نستبدله ، الغطاء
سنرممه ونزقعه ، صندوق نقل الحركة وكذا المحرك سوف يقوم
الحدادون بتصليحهما لنا ...

نظر فاسينين باتجاه الورشة ، رأى اوستين ولسوح له بيده . وفي
غضون ذلك اثارت سيارة البيكاب المشحونة بالقش ضجيجاً مصحوباً
بصريف خافت . اطل من الكابينة بريديخين ، فرمل ونظر ، دون ان
يخرج من الحافلة ، الى شاحنة الزيس من اسفلها الى اعلاها نظرة
مستخفة متقرزة نافرة ..

- احقاً انكم تأملون في ان تبعثوا الحياة في هذه القراضة المحطمة ؟ -
قهقهه عالياً ، امار مفتاح التشغيل وتحرك مواصلاً السير بالبيكاب .
- اين عثرتم عليها يا ترى ؟

- سأل كوزما دانييلوفيتش وهو يتفحص الجانب المهشم قطعاً ، من
جوف الشاحنة .

- حصلت عليها ، بعد الحاح ، من الجنود العاملين خارج خطوط
الجبهة ، في المحطة - وضع فاسينين وعلى شفقيه ابتسامة بهيجة - قلت
لهم : ترى هل يكلفكم شيئاً ان تقدموا هذه الحافلة المشوهة الكسيحة

هدية للمزرعة التعاونية ؟ .. انكم ، في كل الاحوال ، سوف تصهرونها الى معدن ...

- لا بأس بها من كسيحة !... تحدث بفخر واعتزاز سيميون غروليف . يبدو ان الشاحنة قد راقته منذ النظرة الاولى مياشرة - إن هذه «الزيسة» ستقوم وحدها ، بعد اصلاح عطبها ، مقام نصف وسائل النقل بالعربات التي تجرها الحيوانات في مزرعتنا التعاونية !...

- حسناً ، وأخذ مسئول التجهيزات يغمز لي ، متسائلاً : يعني هل من وليمة تقيمونها ؟ - وأصل فاسينين حديثه . فأجبت : طبعاً ، وكيف لا . تفضلوا بما تريدون ، فودكا ، صالو^(٢٥) ، زبدة ؟ ويسألني بدهشة واستغراب : أحقاً أن مزرعتكم التعاونية غنية الى هذا الحد ؟ فأجيبه : اغنياء نحن جداً ، طير واحد لسبعة اكواخ !... إيه ؟ ... وأدرك مسئول التجهيزات ذاك فوراً ، اي اثرياء نحن ونسي أمر الوليمة إياها . لكنه نظر الى نبوشا ، ثم سأل : «لن تعود هذه ؟» قلت له : للمزرعتنا التعاونية . إنها سائقة جرارة - «هكذا اذن ؟ كل هذا وتتظاهر بالفقر والمسكنة ، ايها المدير الهام !... أنا ، بوجود امثال هاته الحليوات ، استطيع ان اصنع المعجزات !» باختصار ، لقد سجل حافلة الزيس باسمي ، قائلاً : خذها واذا انهارت في الطريق فلا تذكرنا بسوء !... لن تكون ثمة داهية دهياء ...

سَرمدير ادارة المزرعة التعاونية باقتناء الحافلة سرور صبي ، وبادر في الحال الى ادخالها في حيز العمل .
- لقد وفقت حتى في الحصول على بعض قطع الغيار والادوات

٢٥ - صالو : شحم ، وذلك ...

الاحتياطية من هنا وهناك في مركز المنطقة ... اما الان فان الامر بيد اوستين !- التفت نحو الحداد ، ملوحاً اليه بيده - أعلم انك الان وحدك ، بدون صاحبك ان بانكرات قد لازم الفراش ثانية ، غير انني سأبعث اليك من يساعذك . وانا نفسي سأبذل جهدي ايضاً ...
- وانا الاخرى لبس ورائي في الوقت الحاضر شغل كثير - تكلمت ، وجلة ، نيورا كوريوشينا .

- نحن في هذه الايام بحاجة ماسة جداً الى مثل هذه الشاحنة ذات الحمولة الثقيلة - وشخط قاسينين ، اثناء حديثه ، حنجرتة براحة يده اشارة الى الكثرة والتفاقم - ويجب السعي الى جعلها جاهزة للعمل والجري ، جريان الدم من الانف ...!

- ولسوف يجعلها حتماً ... ما عليك ، يا ستيبان ، سوى ان ترمي على عاتقه اعمالاً اكثر ، لكي يقلل من معاناته المتتالية من كثرة تفكيره في الحماقات والامور الطائشة ...- تكلم كوزما دانيلوفيتش بلهجة تتسم بالحدة والخشونة بعض الشيء . مما جعل اوستين يجفل من كلمات والده هذه وينظر في عينيه نظرة مليئة بالاستفسار المشوب بالحذر الشديد. بعد ذلك اقترب صامتاً من الحافلة ، مسك الثورين الاماميين من لجام القنب وقادهما خلفه نحو الورشة . وسار كل من مدير ادارة المزرعة التعاونية وكوزما دانيلوفيتش جنباً لجنب ، على مقربة منه .
- لاحظ ان اوستين يمشي ، في المدة الاخيرة ، مطأطئ الرأس -
تكلم قاسينين وهو يدخل سيارته .

- انه يجهد نفسه كثيراً ، يا ستيبان يغوروفيتش ... يتعذب ، اوليس هو ذلك الانسان النافع المجدي للمزرعة التعاونية ؟- تحدث كوزما

دانيلوفيتش . وهو ينظر الى اوستين ، بصوت مرتفع تصحبه ضحكة ساخرة قارصة . - ثم ماذا ؟ قد يكون على حق فهل يمكنك ان تتصرف ، ايها المدير ، من غير ان يكون في تعاونيتك مثل هذا الحداد الماهر ؟ ماذا يحصل ، مثلاً ، لو ذهبت عنه الوثاء واستدعي ثانية الى الجبهة ؟

نظر فاسينين مرتبكاً الى اوستين ، سكت قليلاً ثم اجاب ، مبتسماً ابتسامة ساخرة :

- لكنني اعطيته ، عندئذ ، حقاً مضموناً في البقاء حيث هو !
- هكذا ، عملت لي من نفسك جنراً لا دفعة واحدة - اعلق كوزما دانيلوفيتش ضاحكاً .

- ولم لا ؟ ... انتي ، في واقع الحال ، جنرال المزرعة التعاونية . - اجاب فاسينين مازحاً . ثم اضاف ، بعد ان سار يضع خطوات ، قائلاً : - نحن الان لا نستطيع ، بغير اوستين ، ان نتحرك من مكاننا ، لسنا بقادرين على ان نفعل شيئاً ... اجل ! هذه هي الحقيقة . ارجوك ، يا دانيليتش ، ان تساعد في جز هذه الممتلكات الى الورشة ثم خذنا ، بعد ذلك ، الثيران الى الاسطبل . حسناً ، تركنكما بخير ، ايها الرجلان !
اما انا فاعلي ان اسرع الان الى البيدر ...

- انه لا امرم ... مخجل ، - ... مقرف . لم استطع ان انظر في عينيه . - اخذ اوستين يتكلم بهمس لاذع ، وهو يتتبع بنظراته خطوات فاسينين الذي اتصرف مبتعداً .

- وما الامر الذي تخجل منه ؟ هل سمعت ما قاله ؟ سيعطيك ضمانته بالبقاء في عملك اذا زال عنك العوق . لن يسمع المدير بانصرافك من هنا ،

لأنك شخص مهم للغاية ، وهو نفسه بحاجة ماسة جداً اليك - صرخ
كوزما دانيلوفيتش وقد لاح عليه الغضب .

- وما حاجتي الى مثل هذه الضمانة ؟! انني مـ ... مسرّح بقرار
طبي .

- حسناً ، وما الذي تحتاجه اذن ؟ عش حياتك ما دمت قد اغفيت
من المشاركة في الحرب ...

- عـش وأمسك عن الكلام ، يـ ... يعني ؟! - اضاف اوستين ، بلهجة
ساخرة قاسية ...

- حسناً ، اذهب ، اذهب ، اذهب !! أعلن للجميع ، بلغهم بما
تريد !- بدأ كوزما دانيلوفيتش يصرخ ، متلفتاً .

- و ... ولكن !- صاح اوستين ، مسجلاً على نفسه وعلى والده ذنباً
جديداً برز فجأة - ا ... أعلن ؟! .. ابلغ ؟ متى ؟ بعد ان صـ ...
صمت ا ... أمام الناس شهراً بكامله ؟ ... بماذا عساهم ان يـ ...
يفكروا ؟ سيقولون : « كان دائماً يـ ... يسمع ويـ ... يتظاهر ، نكي
يـ ... يظل ماكثاً فـ ... في المؤخرة !» لا ، يا ابتاه ، كان يـ ... يجب
الابلاغ مباشرة ، منذ ان بدأت ا ... اتكلم . لقد ا ... اغفلت ، ا ... انا
بنفسي تلك الفرصة ...

- اذن ، فهذا انتذا بنفسك ترى - تكلم كوزما دانيلوفيتش بلهجة
مسائلة مسترضية - وما الذي قلته انا لك ؟ لقد اغفلت ...

صمت اوستين بعض الوقت ، فك من الشاحنة عريش العربية مع
الثيران ثم نظر الى والده ، وهو يناوله لجام القنب ، نظر اليه في عينيه -
اول مرة في حياته - نظرة غاضبة ، بل وحتى متوعدة .

أمسك كوزمادانيلوفيتش بالحبل وبدأ يكثر من الصرعة قرب
الثيران ، هارعاً الى الانصراف بأسرع ما يمكن عن الورشة ، وعن
اوستين ...

لم يكن الاجتماع الذي عقد في النادي الامبعث ألم جديد لأوستين وإلا تفجيراً للدمل الكامن في ذاته ، على الرغم من أن كل شيء قد سار ، في الظاهر ، سيراً حسناً وباعثاً على الفرح لو أراد هو أن يفرح . فقد كان أوستين واحداً من اشخاص جديرين قلائل نالوا مكافأة مجزية قوامها ستة عشر كيلو غراماً من الطحين وخمسة لتترات من الكيروسين ونصف سطل من صابون القطران ، مما كان يشكل يومئذ جائزة كبيرة لا يستهان بها ابداً : فالصابون والكيروسين نادراً ما كانا يصلان الى القرية ، وكانا يباعان بمقادير طفيفة وضئيلة جداً مثل جرعات الدواء ؛ وكان سكان قرية كليوجوفكا يرحلون أحياناً الى محطة القطار ليقيضوا الصابون بما يحملون معهم من غسل وقشدة رائحة .

غير أن المكافأة الأشد ايلاماً وتمزيقاً والاكثر دمغاً وتقطيعاً بالنسبة لأوستين ، كانت تلك الكلمات التي دوت على شفطي ستيفان فاسينين : - كيف يعمل أوستين كوزميتش ؟ نحن جميعاً نرى ونعلم ... وعلى الرغم من انه لم يستطع ان يحدثنا ، بأية حال من الاحوال ، عما صنعه في خطوط الجبهة من مآثر بطولية ، الا ان وسامه قد تحدث عن ذلك . فمئذ وقت قريب جداً نال أوستين ديدوشيف نوط «الشجاعة» . ذلكم هو أوستيننا ، ايها الرفاق !.. انه معوق ولكن حدثوني ، بربكم ، هل قعد

يوماً أو توانى ساعة عن العمل ؟ ... شكراً لك يا أوستين وانحناءة هامة حتى اديم الارض من جميع افراد مزرعتنا التعاونية !
رأى أوستين كيف كان الناس يتسمون له ، ناظرين اليه بعطف واحترام . فلم يستطع عندها ان يتظاهر ، ان يتخذ هيئة من لا يسمع . لقد شعر ، صراحة ، بالخجل والارتباك واحمر وجهه من كلمات مدير ادارة المزرعة التعاونية ومن الرعاية الغافة الشاملة التي احاطته من لدن الجميع ، حاساً انه هنا انسان زائف كاذب ، لا يستحق كل هذا الاهتمام .. كان الناس صادقين وصريحين معه ، اما هو فقد انغلق على ذاته واقفل دونهم لسانه .

اعطيت الكلمة لسيميون غروليوف . فنهض من مقعده وخطا نحو المنصة الخشبية ، جاراً ساقه اليسرى جرأً واهناً ، وقد بدت عليه اثار السقم والضنى والنحول واضحة جداً . بدأ يتحدث ، مغالباً نهجانه وضيق نفسه ، عن النصر العاجل على الالمان . وراح يهتف في ألم ممضٍ بأسماء الشهداء من ابناء قريته الصبية كليوجوفا .

... ولا تسمحوا أبداً بان ينال الضيم والاذى من ارضنا الغالية مأرباً . ان دماءنا ودموعنا سوف تسيل غزيرة لدرء الاساءة عنها . انني اذكرك جيداً جميع رفاقنا الذين واريناهم التراب في اديمها الطاهر . انهم محفوظون عندي ها هنا ... - وضرب سيميون بيده على صدره .
« هوذا الانسان الذي يستحق الحنان والتمجيد حقاً ، اما انا فلا ...
هوذا القتل حتى الجذر . - فكر أوستين ثم سار لاستقبال غروليوف الذي كان يرتعش خائراً القوى بفعل خطابه الانفجاري المؤثر . اسنده أوستين كما يسند جريحاً في ساحة المعركة ، وأجلسه الى جانبه .

اعطى قاسينين الكلمة لمقاتل اخر هو فيودور بريديخين الذي راح
يمشي نحو المنبر بخطى ثقيلة . وقف قليلاً ، كاشاً عن وجهه اللامع
المسفوع الذي لوحته الشمس ابتسامة الرجل العملي الواثق من نفسه ،
المعتد بها ... ثم نظر الى الناس من على اسفل نظرة مهيبه واجمة
وشرع يتكلم بصوته الخطابى الجمهوري المدوي :
- اراد الفاشست ان يخضعونا عنوة ، لكننا وقفنا كلنا وقفة رجل
واحد . ولم تذهب دماؤنا ولا هذه الجراح ، - هز بريديخين على المنبر كفه
المصابة - هدرأ . وانه لقريب جداً يوم ...

استمر بريديخين يتكلم كلاماً طويلاً ورتيباً .. اما اوستين فقد كان
جالساً يفكر بسيميون غروليوف وصدره الذي خرقته الشظايا ، وكيف
ان سيميون هذا الانسان الواهن العليل كان يتصيب عرقاً ويستنفد
ذاته فوق المنبر ، ذلك لانه كان يخرج كل كلمة ينطق بها من روحه ولبه .
« اما هذا ، فأي انسان هو ! يلتهب وجهه احمراراً كما الجمر ،
بحيث انك تستطيع ان تجفف عليه لفائف ساقيك ! ... مثل هذا المخلوق
بمقدوره ان يلقي عشر خطب اخرى . انه مستعد لان يتحدث ، بهذر
نيابة عن جميع من قاتلوا على خطوط الجبهات ، الاحياء منهم
والاموات . ان صوته وصحته هما فائضان عن الحاجة الى حد
بعيد ! » .

مرة اخرى بدأ يتململ في ذات اوستين احساس ثقيل بالنفور من
بريديخين وضرب من الحسد المهين نحوه : ان بريديخين ، بكل ما فيه
من لغو عقيم ورعونة سلوكية وتصرف اهوج في حياته اليومية ، هو

بالموازنة مع أوستين يمتلك ، على كل حال ، وضعاً أفضل . انه يعيش واضحاً مكشوفاً وسط الناس ، وان تصرفاته واعماله - حسنة كانت او رديئة - تجري كلها على مرأى من الآخرين ... وما كان أوستين ليرغب في ان يرى بريديخين في داره ، غير انه دعاه ، جاهداً نفسه على مضض ، للحضور بعد فض الاجتماع الى ضيافته مع غروليوف وفاسينين . وكان كل الذي أتاه أوستين في تلك الامسية مخالفاً لميوله الروحية : اراد ان يشرب ، بمناسبة الحادث السار ، على قدم المساواة مع الآخرين ، لكنه اقتصر على كأس واحدة وحسب ، كان يوده ان يبهج ، ساكورديونه واغانيه ، رفاق الجبهة من المصابين والمعوقين ... بيد انه جلس صامتاً متعقود اللسان ، على حين كان الرجال يقرعون الكؤوس تلو الكؤوس نخب نوبله وصحته ، ونخب الوثام واللفة والمحبة في مسكنه الجديد . - ولكنك ، يا أوستين ، تبدو غير مسرور ، اليس كذلك ؟ - حدّق سيميون غروليوف ، مخموراً ، في عيني أوستين .

- ان يكون مسروراً ، طبعاً انه مسرور ، - اجاب مدير ادارة المزرعة التعاونية ، نيابة عن أوستين ، - لكن ، انتم انفسكم تدركون ... ها نحنذا نثرث ونضحك ، نستطيع احدنا ان يقول للاخر ما يريد قوله ، أما هو ؟ ... تراه جالساً معنا ، كما يبدو لك ، غير انه في واقع الحال ، وحيد ، بعيد عنا في صمته الهادئ ، في بكمه الاصم . وحيد فريد ، كأنه في بيداء مقفرة موحشة ... وهذا ، ايها الاخوة ، امر يحتاج ايضاً الى مقاومة وقوة احتمال ، الى تمالك نفس ثابتة ، لا تتكسر .

- ايه ، ان اموري اسوأ ، لكنني عايش كما ترى . ان لم يدركني الاجل اليوم فلربما سيأتي غداً . ان فيدكا وحده هو من تنتظره مئة سنة

أخرى من العمر - تحدث غروليف ساعلاً ، متنحنحاً وهو يشير
بأصبعه الى فيودور بريديخين .

- الشجرة اليابسة يطول صريرها ... - اخذ بريديخين يشجع
سيميون وينشطه .

نظر كوزمادانيلوفيتش الى بريديخين نظرة شزراء ، ومن غير ان
يفسح للحديث مجالاً بان يدور حول أوستين وصحته ، توجه بالكلام الى
مدير ادارة المزرعة التعاونية :

- ما هذه اللعينة التي تمصها ؟ الذي اعرفه هو انك لم تكن تدخن ،
اليس كذلك يا يغوريتش ؟

- حقاً ، لم اكن ادخن سابقاً . لكنني ما ان باشرت ادارة المزرعة
التعاونية حتى غرقت في الدخان . يصادف انني اتمدد ليلاً في فراشي
وافكر : من اين وبم ابدأ غداً ؟ لن تكون عجينة خبزك سميكة كثيفة ، ما
دامت عتابر غلاك خاوية نظيفة ...

- أوستين !... مالك حزيناً مهموماً ؟! - قاطع سيميون بصرخة مخبولة
حديث مدير المزرعة التعاونية ، وقد غطت وجهه القاحل المتقلص بقع
حمراء - لا ، هيا اشرب بحق وحقيقة ، ابتسم لنا ابتسامة الابطال
الباسلين !..

- لا تلح عليه ، يا سيميون !.. دعه وشأنه : اهدأ رجاء !.. أنسيت
كيف كان أوستين قبل الحرب ؟... اما الان فهو ليس بقادر على العودة
الى أيامه تلك . وهذا هو سبب غمه وكربه ... حسناً ، ايها الرفاق رواد
الجبهة ، لقد ان لنا ان نلزم حدودنا ، ان نتوقف . فكل مناشئة من
ينتظره الان في داره ... شكراً لك يا فروسيا ، شكراً لك يا أوستين !-

افاض ، ممتناً في توجيه الشكر، ستيان فاسينين وهو يتلمل ناهضاً من على كرسيه .

— ان شئت فأنا مستعد لان انحني راعاً امامك ، أقف على ركبتي اجلاً... اندس سيميون غروليوف محتضناً أوستين وقد احمر وجهه من الم . لكن يريد يخين تلقفه نحيفاً ، مثل حدث غريرواح يفوده ، بل يحمله تقريباً ، الى خارج الدار ...

أوستين !... بعد انتهاء الحرب ، يوم تغدو ورشتك غنية بالحديد الوفير ... كلميه يا فروسيا ، وضحي له بأصابعك ، فهميه عني ! صاح سيميون عند عتبة الدار بصوت مرتفع مخمور ، وقد افلت من بين ذراعي برید يخين . اذا ما أصبحت ورشتنا غنية بحديد ها اعمل لي بمطرقتك سياجاً حول قبوري لكيلا تسرح المواعز اللعينات فوق لحدي . تذكر ، يا أوستين ! سياجاً ... يضون ضريح العريف أمر الجهاز المضاد للطائرات . لكيلا تدوسه المواعز اللعينات ...

غَبَ هذه الامسية بدا أن ثمة شيئاً ما قد انغلق ، انشق نهائياً ، في ذات أوستين . لقد امست الحياة التي كان ينشد لها الخلاص ، دون وعي او قصد منه ، امست عالية عليه واخذ يضيق بها اكثر فاكثر ...

الى جانب اعمال الحدادة التي اخذت تتناقص تدريجياً قبيل حلول فصل الشتاء ، كان اوستين يدور حول بيوت الارامل وزوجات الجنود المقاتلين في الجبهة ، يرمم الاسيجة والسطوح ويقدم الخدمات الممكنة ...

وحين بدأت تتناثر البواكير الاولى من الثلوج ، كان اوستين قد انتهى من اعادة تغطية سقف حمام نيويورك كوريوشينا . ولقد قامت بمعاونته معاونة جيدة وجادة في عمله هذا ، غير انها لم تجرؤ في هذه المرة على ان تبتسم او تبش له ، متذكرة - على ما يبدو - اوان اللقاء به في ورشة الحدادة ، يوم صدها عن نفسه صدأً فظلاً غليظاً ...

لقد أثابتة نيويورك لقاء عمله اليوم بالنقود ، كما لو انه شخص غريب مستأجر .. فحرّ ذلك في نفس اوستين وانقبض صدره انقباضاً كثيباً . رد اليها النقود وخرج من دارها شاعراً بأنه قد أهين اهانة كبيرة . «لقد بعثرت رعباً ، في تلك المرة ، كلّ الرقة التي كان ينبض بها قلب هذه المرأة . فهي الآن ، انظر اليها ... لا كلمة رقيقة تقولها لك ، لانظرة حنان دافئة تحل بها عليك ، كأنها خرساء» .

لحقّت به نيويورك ، ادركته عند البوابة الخارجية ، أمسكت براحة كفه والصقته بخدها . وفي اللحظة ذاتها استدارت فجأة وأخذت تجري

مسرعة الى الخلف ، نحو سقيفة الباب . «يا لها من امرأة !» - عبر أوستين عن دهشته وهو يتتبع أثرها بنظراته . وقف قليلاً عند البوابة ، باعد ما بين يديه مستغرباً وعاذراً في أن معاً ، ثم خرج الى الشارع . وقد بدا أنه من غير المناسب تماماً ، بل وليس في محله قطعاً ، أن تقفز الى ذاكرة أوستين عبارات نيوركا القديمة : «ما حاجتي الى الغراش الناعم اللين إن لم يكن ثمة من رجل يشاركني الرقاد فيه ؟! ... في أحلامي أراك ، أقبلك يا أوستينوشكا ...»

سار أوستين وهو يفكر : « في المنام أيضاً أرى بعض الأشياء ، يا نيورا ، ولكن ها ... ما استطعت أن أقدمه من عيون قدمته .»

في طريقه الى البيت عرج على منزله القديم ، جلس بعض الوقت مع فارقارا ، مستعلماً : هل أعدت المسكن جيداً لاستقبال موسم الشتاء ، أمن مساعدة يقدمها لها؟ «شكراً لك يا أوستين . الدار دافئة ، وهل تراني بحاجة الى الكثير ؟ قدمت من المخبز ، أوقدت الفرن الحجري واستلقت على جنبتي » . - راحت فارقارا تحدثه بالكلمات والاشارات ، فشعر بالارتياح والرضا أن ليس لدى قريبته ثمة من مظلمة ضده أو احساس بالاستياء منه .

أصبحت فارقارا في الايام الاخيرة مرحلة هادئة . معتدلة - الى حد ما - في تصرفاتها . وقد حزر أوستين سبب هذا التحول الذي طرأ عليها . كانت فارقارا ، قبل الحرب ، هي المرأة الوحيدة التي تعيش بانفراد وعزلة في القرية كلها . وكان الناس يأسون لحالتها ويلذعونها ، هي العزباء التاعسة المسكينة ، التي ضامها الله . اما في الوقت الحاضر فان الارامل «الوحدانيات» صرن يغطين نصف القرية . وانها الان تبدو كما لو انها قد

تساوت في كربها وسوء حظها المتمثل بعزوبتها وبغياب سعادتها
الانثوية في احضان الرجل البعل ، تساوت مع النساء الاخريات ،
فأصبحت الحياة بالنسبة لها أسهل وأخف وأيسر مما مضى .

«كانت تنتظر موتي ، تتمناه ، تذكر اوستين ، بدون رغبة منه ، تذكر
وهو يغادر فاراراً ، ما حكا له والده عنها . - ان قلب المرأة حين يخلو من
حنان الامومة وهمومها يفدوقاسياً عاتياً . لولم أعد من ساحة الحرب حياً
لكان من المستبعد والمشكوك فيه ان تشفق فاراراً على فروسيا وترق لولدي
الصغيرين . لكانت قد شغلت دونهم المسكن كله ، لافرق بينها وبين أبة
تاجرة مرابية ...» ولكن ، لتعوض الان على نواجذها ، ولتمسح بوزها ...
أنفخي أنفك يا فاراراً ! ان يدك الان قصيرتان . وستبقى الدار
لأطفالي في كل الاحوال ، حتى وان لم اكن موجوداً على قيد الحياة .

تشبث اوستين فجأة ، وهو مستغرق في تفكيره ذاك ، تشبث في لحظة
من لحظات التجلي وصحوة العقل بهذه الفكرة الاخيرة التي اوجت اليه
بفراق أسرته ومغادرتها . ان فكرة الأوبة هذه حملت الى نفسه ارتياحاً
مشوباً بالمرارة ، وهونت على ذاته بعض التهوين ، بل ورمت عنها جزءاً من
تبعاتها المرهقة الثقيلة . ان تقف فروسيا عائقاً دون تنفيذ فكرته هذه ،
انها ستفهم كل شيء ... لم تكن بينه وبينها في يوم ما اسرار وخبايا أبداً .
واليوم ايضاً لا يمكن ان تكون . أما سره الراهن ، الذي يحمله الان وحده
فقط ، فهو سر خاص به هو وحده ، سر غادر ، مؤذ ، خبيث ... لكنه
مؤقت . ولم يكن ثمة من داع لجر فروسيا الى حماته العميقة وايقاعها في
شركه القاسي . وما كان في استطاعة زوجته ان تعينه في شيء . ولأسمى في
الدار ، مقابل ذلك ، معذبان مسهدان اثنان ، وقلبان ملومان اثنان .

كان يخيّل الى أوستين أحياناً أن فروسيا أشبه بساحرة ، تقرأ في عينيهِ سرهُ الطالِح الخبيث ومعاناته القاسية المكتومة وتريد أن تساعد . كان يلتصق بها كاضماً ورا دعاً ، بصعوبة جمّة ، تلك الكلمات التي تريد أن تنطلق من صدره ، يلتصق بها موسوساً - كالتصاق طفل عليل بصدر أمه الحنون - والدموع تجول في مقلتيهِ . وكان أحياناً يتسمر مأخوذاً ويجمد كالصنم وراء عمل ، يجلس ذاهلاً مبهوثاً متردداً ، منشغل البال ، لا يعرف ماذا يصنع ، لا يعي ذاته ولا يلاحظ ما يدور حوله . وكانت فروسيا ، وهي تحاول أن تعيده الى دنيا الواقع وتنتشله من غشيانهِ المرعب هذا ، كانت تهزه من كتفيهِ وتبداً تنوح وتندب بصوت عالٍ متنبئة بحدوث كارثة ما محتمة وبمجيء بلية ما زاحفة من مكان مجهول :

- يا الهي ، ترى ما الذي حل بك ، أوستينوشكا ؟ أية سويداء ملعونة هذه التي تقرضك وتعذبك ليل نهار ؟ كيف أستطيع أن اصبر نفسي وأنا أراك تجف وتذبل سقماً وضنى أمام ناظري ؟ عما قريب ستدرك أباك في نحوله وهزاله . هيا حدثني يا أوستينوشكا !... ألا يكون هذا من عين اصابتك ؟ إذن تعال بنا نذهب الى الجدة أوفسيانicha ، فلعلها تستطيع أن تخفف عنك ، تنزع منك عين السوء أن تكن مثلبسة فيك . أما إذا لم تكن فيك ، فعلام إذن اجهاد النفس هذا أو تحطيمها حتى الموت ؟... ان كل شيء عندنا على ما يرام : لدينا دار جديدة ، الطفلان في صحة جيدة ، المائدة عامرة دائماً بما يكفي ، ونحن - الاثنين - مازال اماننا متسع من العمر ، نكدح ونعيش بعرق الجبين ، والحرب ما هي ذي تشرف على ذهابتها . كل شيء يدعونا الى الحياة . هات قل لي ، أوستينوشكا ، ما بك ؟

اين موضع الداء فيك ؟ تعال ننظر قليلاً ، اية عَلاقة^(٢٦) خبيثه هذه التي تمتص من روحك ، من مهجتك ؟ من ذا الذي دبر لك مثل هذا القصاص ؟....!

« أنا الذي عاقبت نفسي بنفسي . وأنا الذي سأجتلي ، ملتهماً كل شيء بدون امتناع » ، - فكرر اوستين متجهماً ثم ابتسم ، شارداً الذهن ، لفروسيا . اما هي فقد اقتنصت في مقلتيه الحائرتين المهمومتين بصيص تدبير ما ناضج ، مقلق ، منذر بالخطر ...

(٢٦) - العَلاقة (جمعها عُلُق) : دودة من الفصيلة الحليقة ، تستعمل كعلاج لامتصاص الدم من جسم المريض .

ذات يوم تأخر أوستين في عمله بالورشة ، ولم يصل الى دارة إلا عند عتمة الظلام . وقد بدأت تتولد ، حينئذ ، باكورة عاصفة ثلجية صغيرة خفيفة . كانت ندم الثلج تدور بسرعة كالدوامة ، متجمعة في جداول صغيرة من رياح ثلجية ضاربة الى البياض ، جارية على مستوى واطيء يكاد يلامس وجه الارض وراحت تندفق ملتوية كالافعى عبر الطريق الذي بدأ ينجمد . لكن دون ان يكسوا الثلج بعد ... ومن مكان ما في الزقاق ، بلغ السمع صجيب نسائي خافت مكتوم . وفي اللحظة ذاتها تقريباً ، اندفعت خارجة من ناصية الشارع قامة لفتاة شابة مالوفة .. وسرعان ما مر من احدى النوافذ خط من ضياء ، كاشفاً عن وجه ساعية البريد تانيا فاسينينا ، التي مرت على عجل بالقرب من أوستين دون ان تلاحظه او تراه ... كانت تنشج ، كامة فمها براحة كفتها وقد انحسر رأسها ومال شالها الوبري منحدراً على كتفها .

توقف أوستين ، مصيحاً بسمعه : كان بكاء النسوة وحديثهن يطرق الاذان من عتمة الزقاق ، انعطفت خلف الركن ورأى : على مقربة من دار كلافديا اوسينكوفا ، في الفسحة المغطاة بطبقة ثلجية خفيفة ، كانت تلوح ضاربة الى السواد ، اجسام نسائية شبيهة بسرب صغير . ومن اعماق المنزل كانت تطلق ، من وقت لآخر ، عبر الممر الخافت الضياء ، صيحات

نسائية مفعجة تنفتت لها الأكباد ، وكانت النسوة يتبادلن الحديث بشجن وجزع :

-لم يمض نصف عام ...

-نعم ، الأب مازال سالماً ، يحارب ، لكننا الابن ... أه ، أوخ ...
اقترب أوستين ، بلا ارادة ، من الحشد المضاء بنور النافذة الضئيل .
اسرعت تخطو نحوه واحدة من العجائز وراحت توضح له الامر ، ملوحة بيديها :

-نبأ استشهاد ... كولينكا أوسينكوف ورد اليوم الى القرية ... حملته تانيوشا فاسينينا بنفسها . مسكينة !... ما اصعب ذلك عليها ، هي العروس !... اكان مقدراً لها ان تحمل بنفسها نبأ استشهاد خطيبها الحبيب !؟... وي ، اللهم ابعد المصائب والويلات عنا !

ورسعت العجوز متنهدة ، علامة الصليب . كوليا أوسينكوف !؟...
انتهى ، قتل يعني ؟... ولكنه بالامس فقط بدا أنه جاءنا الى الورشة مودعاً ... كان مخلوق الرأس حتى الجلد . كولكا الطويل العنق ، مذكمه القوية مصافحاً الواحد منا تلو الآخر ، مدها اولاً للجدي باتكرات ثم له ، هو أوستين ... ومن وراء عضادة الباب ، كانت الحسناء تاتيانا تتطلع اليه بنحياء وخفر ...

قتل !...

وقف أوستين قرب الحشد أخرس صامتاً وبلا هدف ، ممزقاً مهترئاً حتى العظام من وقع نشيج كلافديا الرهيب ونحيبها الهائل ... ثم اخذ يخطو الى مكان ما ، خاوي النفس عقيمها ، ومكظوماً مذلاً مسحوق الفؤاد ، غير أنس ذاته ولا شاعربها .

راح يدور ، يتقلب في الشارع العاصف بالثلج ، وحين وصل الى البيت لم تستطع ان تثيره - بأية حال من الاحوال - جميع اسباب الطمأنينة المنزلية المتوافرة فيه : فلا دفع المأوى الحبيب وراحته ، ولا ابتسامة فروسيا واصوات الصبيين المرححة الرنانة كانت بقادرة على أن تؤثر فيه او ان تبعث في نفسه بعض الاحساس بالطمأنينة والنهوض ... جلس - دون ان ينزع قبعته وسترته - على مقعد خشبي عند مدخل الدارويد ايدخن سيكارة ، مثبتاً ناظره في لوحة الارضية التي امامه . دنت منه فروسيا ، نزع القبعة من رأسه ثم وضعت يديها على كتفيه ، طالبة منه ان يغير ملابسه . نظر اليها ، مستبعداً ماتريد ، كما لو انه كان يتعامل مع شخص لا يعرفه ثم أعرض عنها .

على مائدة العشاء تبودلت اخبار القرية . بدأ بعدها كوزماد انيلوفيتش يعبر عن قلقه حول كيفية الذهاب الى غابة الحور الرجراج لجلب أغصان الحطب اليابس مادام الثلج قليلاً ، وحول كيفية تدفئة القبو الجديد ... كان اوستين يستمع الى حديث والده ، غير انه لم يسمع إلا القليل منه . بعد الانتهاء من تناول العشاء خرج ، طارحاً معطفه القصير على كتفيه ، الى سقيفة الباب المغطاة بطبقة رقيقة من الثلج ووقف طويلاً في الظلام . دخن سيكارة ثم قفل عائداً بلا رغبة ، الى داخل المنزل . وعند المدخل تواجه مع كوزماد انيلوفيتش ، فأخلى باحترام السبيل امام والده العجوز .

« كلا ، ان أبي لا يتحمل أية مسؤولية . أنا لم استسلم لنصائحه هو ، بل انصعت لنفسى ... كل العفونة والرداءة والنفايات قد شمخت بأنفها وتفرغت مختالة في ذاتي أنا ، ثم راحت تأمر وتقرود على هواها ... »

استعرض من عتبة الدار - بنظرة مكتئبة - المنزل كله . طاب ، بعدئذ ، من ولده بإفليك ورقة وقلم حبر ، ثم مضى إلى الزكن الأساسي من الغرفة وجلس أمام المنضدة . أجرى ، بصورة بطيئة وحرقاء ، يده التي أفلعت منذ زمن عن الكتابة ، أجراها على الورقة . غير أنه سرعان ما شعاع كل الأسطر التي كتبها ، ممزقاً الورقة أياها ... ثم جلس طويلاً على حراك ، قابضاً كفه على القطع الصغيرة المهزقة ، وكأنه يحاول أن يحل مسألة حسابية عويصة معقدة قد استعصت على الحل .

بعد مضي فترة وجيزة امتدت يده بلا عزم نحو السواة . ويد أقلم الحبر المسحوج يصرف مرة أخرى ، بحمية خرقاء ، على الدفتر الصغير المائل أمامه ...

دخل كوزما دانيلوفيتش إلى العرفة ، بعد أن أوصد الباب وراءه جيداً ، وراح ينظر ، من خلال منكب ولده ، في الدفتر انصاير . استدار أوستين بحدة : نهض من مكانه ، دس الدفتر في عبء وخرج من الغرفة ... ارتدى ، أثناء سيره ، معطفه القروي وقبعته ثم سار تودعه نظرات استفهامية من لدن زوجته وولديه ، سار متخطياً عتبة الدار . اشتدت العاصفة الثلجية ، بدأت تعدث صوتاً أشبه بالنشيج ، منذرة بأن ستحمل أثناء الليل صقيعاً شتائياً حقيقياً .

سار أوستين جيئةً وذهاباً على طول بيوت القرية . لم تكن به رغبة في العودة إلى الدار ، فانتعطف معرجاً على الورتمة . عثر أثناء دخونه على القانوس ، أشعر النار . نزع معطفه القروي ثم راح ، ويمضياً بعض الفحم إلى الوجاق المستكن الذي لم يكن قد انطفأ بعد . راح ينفخ الجمر بالمنفاخ .

استمر الصقيع شديداً قارصاً حدَّ اللعنة . وكانت بركة المياه الدائرة حول القرية دوران حدوة حصان ، والمتجمدة منذ شهر نوفمبر مكونة ما يشبه أرضاً زجاجية سميكة منيعة ، كانت هذه البركة قد بدأت تستقبل الأطفال الذين راخوا يتزلقون عليها بمزالج الجليد والعربات الزلاقة الصغيرة . وفي شهر ديسمبر اخذت تمر على الجليد المتجمد ، مروراً استطلاعياً حذراً ، طلائع المركبات والحافلات المحملة التي استهانت بالطريق الصيفي الذي كان يمر خلف القرية عبر قنطرة خشبية واهية ثم يتسلق ، بصعوبة واتحدار شديد ، سفوحاً صلصالية رخوة ويغوص فيها ... وقد ربطت البركة المائية المتجمدة الطريق ربطاً مستقيماً ومباشراً بمركز المنطقة ، واختصرته بما يقرب من خمسة كيلومترات . في ذلك اليوم رحل كل من فيودور ويريديخين ، على سيارة البيكاب ، وتيورا كوريوشينا ، على شاحنة الزيس (لقد فوض مدير المزرعة التعاونية امر الشاحنة اليها ، هي سائقة الجرار الفضلي التي بقيت من غير جرار) ، رحلا معاً لجلب الدريس ، مستصحبين وايهما عدداً من الصبايا العنالات . تحركت الحافلتان على مهل ، فوق حقل مغطى بالثلج ، في اثر جرارة كانت تدفع امامها صندوقاً من الصلب يجرف الثلج ويفسح الطريق .

بلغوا اكداس الدريس الجاف بسلام ، شحنوا وشدوا بالحبال شداً

وثيقاً كميات الدريس المتماسك تماسكاً محكماً والثقل الى حد ما . ثم قفلوا راجعين بعد أن اطلقوا لمركبي الحافلتين الحربة في ان يهدرا ويفرقعا بقوة واشباع ...

عند منتصف النهار وصلوا الى البركة المائية المتجمدة . سارت على الجليد أولاً حافلة البيكاب ، وفي اثرها راحت تدب دبيباً شاحنة الزيس ، مؤرجحة حملها الواسع الفضفاض . اطل بريديخين من كابينه البيكاب ، التفت مبتسماً الى الخلف واولماً براسه الى نيورا كوريوشينا : لا تهيبني ، يعني هكذا يجب ان تتصرفي .. تمسكي جيداً !

ارتطم رأس بريديخين ، وهو جالس في مكانه ، بسقف الكابينة فطارت قبعته فوق الثلج . كبح فرامل الحافلة ، نزل من الكابينة ، التقط قبعته وعاد ليجلس وراء مقود السيارة . وفي هذه اللحظة دوت فرقة هائلة رهيبه اخذت تنتشر هائجة وكأنها رجعات اغنية مصحوبة بدوي ضربات موسيقية صخابة ... وأطلقت من جهة اليسار شاحنة الزيس ببوزها الاقطس ذي اللون الاخضر . اطلت وكأنها تسابق البيكاب . وبدا فجأة كما لو ان حافلة البيكاب قد مُست من الخلف مسة خفيفة وسحبت الى الاسفل . ادرك بريديخين بسرعة خاطفة كل شيء فشغل ناقل الحركة في لمح البصر ، معطياً دفعة قوية كاملة من الوقود ، فزارت سيارته فجأة زئيراً مدوياً أخرق واندفعت واثبة الى شاطئ البركة المتجمدة .

اوقف بريديخين سيارته ، ففز من الكابينة ، ملتحقاً نحو شاحنة الزيس ، إلا انه لم يبصر لها أثراً ... على بعد حوالي أربعين متراً من الشاطئ ، كان يتراءى داخل ثلجه كبيرة كدس الدريس المشدود شداً

متيناً بالحبال وقد اخذ ينهمر منه الماء على شكل حلقات تدور أبعد فأبعد حول المكان ، وراح الناس يدبون على ايدهم وارجلهم معاً ، متفرقين في اتجاهات مختلفة ... ولم يسمح الدريس الذي كان محملاً هو والخيمة على الجوانب المفتوحة ، لم يسمح للشاحنة بأن تغوص - كما يغوص الصخر - في الماء . الا ان الكدس كان يهبط مع كل ثانية تمر ويغوص تدريجياً في الثلثة الواسعة ، حتى هذا أخيراً وما عاد يلوح للانظار الا قليلاً ، من خلال المياه التي كادت تغطيه تماماً : لقد بلغت الشاحنة بعجلاتها قعر البركة المتجمدة .

لم يستغرق الحادث اكثر من دقيقة واحدة ، ولم يتسن لاحد ان يفوه بشيء ما . اندفعت الصبايا مصعوقات مرعوبات نحو بريديخين وكأنهن ينشدن عنده سبباً ما للنجاة مما وقعن فيه . عدا نيورا التي جلست غير بعيدة عن الثلثة وراحت تبكي بكاء مرأ شجياً ... كانت تنورات البنات اللواتي جلسن في الكابينة مع نيورا مبتلة ، وسرعان ما تجمدت على أجسادهن ، من اثر الصقيع ، وكأنها قوالب من جليد .

- كيف نتصرف الان ... مع الدريس ، يا فيد ؟ -

سألت احداهن بقلق وعيناها مغرورقتان بالدموع .

- الحافلة أغرقوها ، وانت : الدريس ، الدريس ! ..

هيا بسرعة الى القرية ، لا جدوى من الوقوة والوقوة هنا ... تصرف بريديخين بقسوة وفضاظة مع الصبايا ، ثم راح يخطو متجهاً نحو نيورا ، شاعراً بذنبه فيما حدث .

لم تتمكن نيورا ذات التجربة القليلة في قيادة الحافلات من ان تكبح

الغرامل في اللحظة المناسبة . ولكيلا تصطدم بسيارة بريديخين التي توقفت فجأة فقد أدارت ، بدون لباقة مقود الشاحنة ، محاولة اجتياز البيكاب . فكان ان ظهرت الحافلتان متجاورتين ، متد اصتين معاً . فلم يتحمل الجليد مثل هذا الثقل الشديد ... وحصل ما حصل .

- لماذا أعطوك عينين وفرامل ؟! السيارة ليست جراراً : ما دمت قد جلست خلف المقود فانظري اذن بعينيك كليهما ... قلت لك ، لكنك لم تسمعي : تمرني على «عجوزتي» البيكاب أولاً ، ومن ثم خذي الزيس ... راح بريديخين ، بعد ان قرعص على مقربة من نيورا ، راح يدندن مظهراً تعاطفه معها ، وعلى شفقيه ابتسامة مأكرة .

- اتركني وشأني ... أجابته غاضبة مزمجرة وهي تمسح دموعها .
- طيب . المهم هو انك سالمة ، عابشة ... اما الشاحنة فسوف ننتشلها في الربيع ...

- ماذا ؟! انتفضت نيورا ناطة من مكانها فانسخت ، بضجة وفرقة ، تنورتها المتجمدة التي كانت ملتصقة بقطعة من الجليد . ولكن سيغطيها الغرين ويحجبها النلمي قبل ان يدركها الربيع ، وستكون محاطة بالمحار من كل صوب ... هيا بنا الى المدير ... سنقيم القرية كلها وننهضها ، ولسوف أعجل بالجرار ...

- روى ستيبان فاسينين ، بعد ان عرّج على ورشة الحدادة ، روى لأوسنين وكأنه يحدثه عن دامية دهياء او خطب جسيم خاص به هو بالذات ، حادثة الشاحنة التي ابتلعها أليم المتجمد ونا يعض بعد أكثر من ثلاثة ايام على تقديمها الخدمات للمزرعة ،للتعاونية . فنظر اوستين الى المدير نظرة مشحونة بالشجب والاستنكار والضحج . وكأنه يقول

له : كيف تجرأتم على أن تفعلوا ذلك؟! لقد لزمتم الورشة لا أبرحها اسبوعاً بكامله ، صفقت ورتبت من جديد جوف الشاحنة كله . أعدت غسله وطليته بالدهان . ثم نصبت للمركبة جوانب جديدة وثبت لها ابواباً جديدة أيضاً ... كيف فعلتم بها ذلك ؟!

- عما قريب سيطلبون لك من الورشة الميكانيكية مرسين من امراس القطر . الحم إلى كل منهما عروتين ثم اسرع بنفسك في الذهاب الى البركة لتقديم المساعدة ... - كان فاسينين يتكلم بصوت عال مرادفاً كلماته بكثير من الحركات والاشارات الصادرة من يده الوحيدة .

حين وصل اوستين الى شاطئ البركة كان العمل هناك يجري على قدم وساق . النسوة ، الصبيان والصبايا ، الشيوخ ... راحوا جميعهم ينتشلون ، بالمجارف والمذاري ، حزم الدريس من الماء ويسحبونها الى شاطئ اليم . وكان كل من فاسينين ، بريديخين ، كوستيوشكا المحاسب ، أغايوف ذي الساق الوحيدة ، ومعهم يضع نساء ، كانوا جميعاً يهشمون الجليد ، فاتحين من الوهدة منفذاً نحو الشاطئ . وكانوا ينتشلون من الماء فوراً قطع الجليد المنفلقة ويسحبونها ثم يرمونها هنا وهناك على الجوانب وكان يخرج من الماء ومن الناس بخار يتصاعد ، مكوناً أعمدة تتكولب وتتضفر على خلفية السماء ابان الاصيل . كانوا يعملون بهمة ذات جدوى ، بجدية النمل ومواظبته . بغضول وحب استطلاع يتسمان بالقلق والحرص تجاه انفسهم ، تجاه طاقاتهم الذاتية ، تجاه عزائهم التي لا تكل ولا تمل وتدبرهم الصعب العسير ، بما يشبه المستحيل ، في ان ينقذوا الشاحنة الثقيلة وينتشلوها من تحت الجليد .

عند الشاطئ ، كان يقف على أهبة الاستعداد كل من الجرارة وحافلة البيكاب وأربعة أزواج من الثيران ، في شكل قافلة ممتدة باستقامة واحدة . كانت هذه القوى بمجموعها ، وقد ربطت الواحدة منها الى الأخرى بالحبال والقضبان وعرائس المركبات وحلقات التوصيل كانت تنتظر أو أن الانطلاق ، لحظة الصفر لكي تقوم ، متكاتفه متآزره وفي دفعة واحدة ، بانتشال الشاحنة وجرها الى شاطئ اليوم .

حينما غدت الثغرة ذات السعة البالغة ثلاثة امتار عرضاً وما يقرب من ثلاثين متراً طولاً مهياً ومطهرة من الجليد ، أعلن فاسينين عن فترة استراحة . فلقد كان من المهم جداً الابداع بالتفكير في كيفية تثبيت حبل القطر وشبكته بالشاحنة تحت الماء . احتشد الرجال (وكانوا كلهم من المعوقين الذين سرحوا من الحرب بسبب جراحهم واصاباتهم) احتشدوا مكونين حلقة حول المدير وراحوا ، وهم يدخنون من حين لآخر ، يتبادلون النصيح والمشورة :

- حتى القعر ، ثمة ما يقرب من أربعة امتار لا أكثر .

يعني أن طرف الحبل يشد الى العمود و ...

- خبط عشواء ، هيهات أن تتمكن من الأمر بمجرد الحدس

والتخمين ...

- فيودور ، هيا اسرع الى الاسطبل حالاً . انتقي من هناك بعض

العوارض والاوراد الخشبية المثينة ، بعض ما هو ملائم وصالح منها .

اجلب معك اثنتين او ثلاثاً من العُرش الطويلة الخاصة بمركبات

الخيال !... - أصدر فاسينين امره الى بريديخين .

اقترب اوستين من الحشد ماسحاً بقبعته جبينه الناضح عرقاً ، وقد طرح من يديه الافعال^{٣٧} ، الحديدية جانباً .
- هاكم انظروا ، حتى اوستين لا يستطيع ان يتنبأ بشيء ، فهو لا يهتم ولا يهتم... ولكن لا بأس ، عما قريب سنحاول . - تكلم فاسينين ثم سار مقترباً من الحافة القصوى للثمة وراح يحدق بنظرات ثاقبة نافذة في المياه المعتمة الغامقة ...

تبين ان العمود الذي جلبه بريديخين كان اقصر من المراد . فوصلوا ، عندئذ ، ما بين عريشتين خشبيتين . وبعد ان ثبتوا المرس جيداً ، اخذوا يعيثون طويلاً في الماء حتى اصطدموا بالشاحنة . فجرب كل واحد من الرجال حظه بالتناوب . لكن لم يوفق اي منهم في ان يشبك المرس بالحافلة المعلقة ...

توقف الناس بعد ان اجتمعوا متقدين هياجاً من فرط ما بذلوا من نشاط وجهد في العمل ، توقفوا وهم لا يدرون ماذا يصنعون بعد هذا ... وبدأت القشعريرة والبرحاء تنتاب المتون المتصبية عرقاً ، وأخذت جزم اللباد الطويلة المنشرية بالمياه ، وقفافيز الايدي التي غمرها الجليد جميعاً ، اخذت تصر وتزيق مثل تنك الصفيح !

راح القوم وهم ينظرون الى شمس ديسمبر الواهية الواهنة التي طفقت تبتعد حثيثاً وراء الافق القرمزي المشوب بالدخان ، راحوا يتقارعون دونما حقد او سوء ويتلاحون فيما بينهم ، من وقت لآخر ، في ملل واكتئاب ... بسبب البرد القارس القاسي ، وبسبب آخر اهم من

ذلك ، ألا وهو عجزهم الذاتي عن البلوغ بالعمل ، الذي بدأوه بمنتهى الحماس والتكاتف والتواد ، حتى نهايته المبتغاة . وشرع بعض الصبيان ، ممن فقدوا الاهتمام والمتعة بالعمل الذي وصل الى طريق مسدودة ونهاية مغلقة ، شرعوا ينصرفون الى بيوتهم وقد تتلجوا بما يكفي ويزيد ... كما أخذت تقل أيضاً كثافة الحشد المحدث بأنظاره حول الشاطيء ، والمتكون اصلاً من العجائز والشيوخ الذين قدموا - كما خيل اليهم - لكي يفيدوا بحضورهم القضية المشتركة ، وذلك بالتأثير في الجمهور العامل ورفع معنوياته ...

كان الماء يتنفس في الثلثة تنفساً خفيفاً ضعيفاً ، نافثاً الابخرة المتجهة نحو الاعلى . وكان اسود اللون مضطرباً ، ينعكس عليه بصيص أفول ذي حمرة غامقة ثقيلة .

« خلال نصف ساعة سيخيم الظلام تماماً ، وسوف يكون الوقت عندئذ متأخراً . والى ان يحين الصباح يكون تجمع الجليد قد بلغ أكثر من خمس بوصات » . فكر أوستين ثم تحرك باتجاه المدير . لم ينتبه قاسينين المتجهين المرتبك الى الشرح الذي قدمه له أوستين بإشارات من اصابعه .

- انه يشير الى وجوب الغوص وتثبيت الحبل بالشاحذة - تحدث الاعرج كوستيوشكا ، لاكراً قاسينين بمرفقه ، بعد ان حذر المراد من اشارات أوستين .

ان هذا واضح حتى للغبي المغفل ، غمغم بريديخين . لكن اين نجد مثل هذا الشخص الذي ...

- عموقيديا ، هولها ، فليجرب فجأة سبق القول ، بحزم جازم

قاطع ، أحد الصبيان الذين كانوا يحومون على مقربة من الرجال . إنه سمين شحيم مثل قيل البحر ، لا يجمد ولا يغرق ولا يبالي بشيء ... ومثل هذا الماء لا يساوي عنده شيئاً ...

وماذا في ذلك ؟ انه رأي سديد حقاً تلقفها كوستيوشكا سران فيدكا هو أفضلنا جميعاً صحة وعافية ...

- لكن الصحة الجيدة تلزمها صيانة اشد ... هذا ما كانت تقوله جدتي : ربة بريديخين هازلاً ، ثم اُضاف بعد ان شعربأن القوم ينتظرون منه ما هو اكثر من ذلك ، اُضاف قائلاً : ايها المدير ، اوفدني غداً الى المدينة . لي هناك واحد من معارف المقربين ، انه غوّاص ...

- لم يبق سوى ان تجلب ايضاً فصيلة هندسية الى هنا - لوح فاسنين باعياء ، مشيراً الى رفضه فكرة بريديخين .

- قد أغوص في الثغرة الجليدية !... لكنني سأفعل ذلك عندما اكون قد سئمت العيش وضقت بالحياة ذرعاً ... أنشأ بريديخين يقهقه بصوت جهير ، غير ان الرجال لم يتقبلوا مزاحه هذا . لقد ضننت علي ، يا يغورفيتش بشاحنة الزيس ، ولهذا فقد عاقبك الله ...

- عاقب الجميع . فالشاحنة هي ملكية عامة ، ملك مزرعتنا التعاونية كلها . واذا كانت عزيزة عليك اكثر من الجميع فهذا اذن ارنأ مدى اهتمامك بها . ان المدير سوف يكرمك : ستجلس انت وراء مقود الزيس ، وتقود نيورا سيارة البيكاب . راح أغايوف ذو الساق الوحيدة يهمزواخراً بريديخين وكأنه يحثه ويشجعه .

ما الذي تهدف اليه ، يا ذا الساق الخشبية ؟ تريدني ان أقفز فوراً في الثغرة الجليدية من اجل هذا البريموس الصدى ، اليس كذلك ؟ -

بدأ أن يريد يخين كان يتكلم لأول مرة في حياته ، دون مزاح أو ضحك .
لعت مقلته الكستنائيتان لعاناً عدائياً وانتقامياً شريراً : ابحت عن
الحمقى المغفلين في مكان آخر !... وعلى العموم ، كفاكم ، ايها الرجال ،
تشحذون السنتكم ثرثرة وهذراً لقد أن لكم أن تعودوا الى بيوتكم .
والصباح رباح ...

- تواري أوستين خلف كدس الدريس المتجمد الذي التصقت بعضه
فوق بعض ، تواري وكأنه يحتاط من لسعات ربيع الشمال القارصة
البرد . والتقط هناك من فوق الثلج قطعة طويلة من ذلك الحبل الذي كان
الدريس مربوطاً به ، قاسها بخطاه ثم بدأ يخلع ملابسه . وقد حثه
الصقيع القارص على الاسراع في عمله هذا .

خرج الى الرجال بفلابسه الداخلية وجواربه الصوفية ، فلاح لهم
بجسمه الابيض كما لو انه شبح قد مثل امامهم فجأة . جمد الجميع
دهشة وتعاطفاً : فقد كان من غير المألوف ، حدّ الرعب ، ان تشاهد فوق
الثلج انساناً خلع ملابسه في مواجهة سيل متحدر لعاصفة ثلجية ثائرة
قبيل المساء . حزم أوستين ، أثناء السير ، نفسه بأحد طرفي الحبل
ودفع بالطرف الاخر الى فاسيتين . خبّ نحو الثلثة ثم انحدر في الماء ،
مستنداً الى حافة من الجليد . حدث كل ذلك في ثوان معدودات . وقف
عندها الجميع متسمرين الى اساكنتهم ، ولم يتحركوا إلا بعد ان تواري
أوستين تحت الماء ، حيث اخذوا يعججون ويضجون وقد سادهم
الهرج ...

- الحبل ، ناوله الحبل بسرعة !... أطلق فاسيتين صيحة قوية وهو
يركض نحو ثغرة الجليد .

- ولكن لا وجود له . انظروا ، لقد غرق أوستين ازار كوستيوشكا وهو ينظر في التلثة الجليدية .

انحنى الجميع فوق الماء ، مشرئين بأعناقهم وجعلوا يدققون النظر بضع ثوان بتشبث وعناد في غوره الارذوازي^(٢٨) الصامت .
لاح أوستين فجأة معروماً الى اليسار قليلاً ، من الرجال الملتصقين بالثغرة الجليدية ... كان وجهه أحمر كأنه مسموم بالماء الغالي .

- الحبل !... صرخ فاسينين وهو يطبطب ، محتدماً احتداماً جنونياً عنيفاً ، بجزمته اللباد التي غطاها الجليد تماماً .

مد كل من بريديخين وكوستيوشكا فتلة الحبل الحلزونية التي تحمل عروة صغيرة في نهايتها . فتلقف أوستين هذه الافعى الغولانية ثم غاب في الماء بعد ان التهم بفيه بعض الهواء . وظل غائباً عن الانظار فترة طويلة نسبياً . حيث تجاوزت دقيقة من الزمن . ثم ظهر فجأة معروماً فوق سطح الماء وشرع يبتسم ابتسامة مثيرة للفرح ويومئ برأسه الى فاسينين ايماءة الظفر .

- شبكت ؟... حبيت من بطل مقدام !... هيا اخرج بسرعة من الماء ! هتف فاسينين ، ملوحاً بيده واندفع سريعاً تحوافة التلثة .

هز أوستين رأسه واخرج يده من الماء ، ناشراً أصبعين الى اعلى .

- يطلب حبلاً ثانياً . وضع كوستيوشكا .

- واحد يكفي !- صرخ بريديخين .

لكن أوستين لوح بحدة ونفاذ صبير وأقبل يرفع ، مرة اخرى ، أصبعين اثنين .

٢٨ - اي الشبيه بلوح الارذوازي الصخري او الخشبي

- يريد يخين ، المرس ! بسرعة ، ايها المهذار ، يا لسان
الابالسة ... الرجل يخدر برداً اما انت ...
قذف فاسيذين الحبل الى كوستيوشكا وتحرك بسرعة لمساعدة
بريديخين .

جذبوا المرس نحو الماء . حاول بريديخين ان يوصل طرفه الى
اوستين ، إلا انه اخفق في مسعاه ، فبعد ان لوح به رماه خطأ في الماء ...
عبرت الحلقة الحديدية محلقة فوق اوستين ، الذي استطاع ان يلتقط
المرس ويتوارى في الماء . لكنه سرعان ما عوم مفتوح الفم فوق سطح الماء
وصرخ عالياً في وجه يريد يخين :
- ب ... بليد ! ... أ ... اعوج اليد ! ...

- نذت هذه الاصوات عن اوستين كالقشعريرة التي تهز الجسد
برمته . لقد طق بها في أسنانه ثم غاص ثانية في اعماق اليم فارتطمت
ساقاه بكبوت (٣) الشاحنة وراح يبحث - فاتحاً عينيه - في الامفل .
قرب المصائبيح الامامية ، عن الناب الاخرى لحبل القطر .
- اورا ! ... عمو اوستين بدأ يتكلم ! ...

اورا ! ... سمع اوستين ، وهو عوم فوق سطح الماء ، هتافات الاولاد
التي بدت وكأنها قادمة من مكان قصي .

لم يكن يسمع الاصوات كما يجب ولا يعيها وعياً جيداً . ما عاد
جسده المخرم بالآلح المسامير الجلدية يستجيب له . وبدا كما لو ان
كنايه كله قد تقلص بالغاً حجم قلبه الذي لم يحس به احد سواه ، والذي
عاش ، نبض في صدره مضغوطاً بمضاغط الزمهرير القارص ، مقاوماً

سكرات الموت بأخر ما تبقى فيه من رمق وقوة .
انتشلوه من الثغرة الجليدية متجمداً خدراً ، منهوك القوى تماماً .
طرحوا على كتفيه دراعة^(٣٠) وحملوه الى كابينة البيكاب .
- من ذا يفعل مثل هذا الفعل ؟! لم تستطيعوا أن تهينوا معطلاً من
الفرو وبعض الفودكا لمثل هذا الظرف ؟! - عبر بريديخين عن استيائه
وهو يجلس الى جانبه أوستين الذي كان معلقاً بين الحياة والموت .
- الى امام ... ما الداعي الان الى المهارشة والتهريج ؟! هيا
عجل ! - صرخ فاسيتين بالسائق في صوت حاد ، ندَّ عنه من برد ومن
غضب ...
- أورا ... أوستين يتكلم !.. أورا ... !.. - كان هتاف الحشد
يتعالى عند شاطئ اليم ...

في البيت نزلوا جسم أوستين ودلكوه بالثلج والفودكا . ثم دثروه دافئاً بمعطف من فرو الضأن وارقدوه فوق الموقد الحجري الساخن . ترقبوا متوجسين ، خائفين من أن يكون قد أصيب بالتهاب الرئتين . لكن أوستين لم تند عنه أية سعلة . بيد أن جسمه طفق يتورم مع اقتراب مساء اليوم التالي . في الليل التهب حرارة ، تقلب على جنبه من اثر الحمى الشديدة ، وقد تورم الى درجة لا تصدق . انتفخت يداه ورجلاه كالمطاط تماماً . انتفش وجهه وتضخم تضخماً رهيباً ، بحيث لم يكن يبين فيه مكان العيدين سوى ثغرتين ضئيلتين ضيقتين للغاية . وهرعت زوجته فروسيا راكضة الى الوظيفة الصحية المسنة التي سبق أن اخلت الى كليوجوفكا من مكان ما قرب مدينة بريانسك . ألقت هذه على أوستين نظرة لم تحاول بعدها حتى ان تفتح حقيبتها الجلدية البالية التي كانت تنطوي على بعض العقاقير والادوات الطبية .

- الكيتانز ، - فاهت بصوت خافت وهي تجس نبض أوستين وتغرز أصابعها في ساقيه المتورمتين . وظل جسمه الشبيه بعجينة رخوة يحتفظاً بالبعجات التي أحدثتها فيه أصابع الممرضة إياها .
- اسمعوا ، - تكلمت ، ثم سكنت قليلاً ...

ثم أضافت وهي تلهلج الغرفة : انه في وضع عسير جداً ، غير انني لا

استطيع ان اساعد في شيء .

- ولكن ، ألا يستحسن ان ننقله الى مركز المنطقة ؟ - سأل ، ملتصقاً ، كوزما دانييلوفيتش .

- كلا . ان الامل الان منوط كله بالجسم ، بقوة المناعة الجسدية : يقدر على التحمل ، يعنى انه سيعيش ، لا يقدر ، يعنى ... انهما الكليتان ! - أفصحت الموظفة الصحية هامسة . فتحت حقيبتها الطبية ، عثرت فيها على زجاجة صغيرة وضعتها في راحة الشيخ المنتهية المفتوحة : والان هاكم هذه القطرات ... ثلاث مرات في اليوم . قللوا له من الشرب ، ولا تعطوه اي شيء مالح ...

كانت حال اوستين تسير من سيء الى أسوأ ، ساعة بعد اخرى . كان يتلظى حرارة . وقد تكررت باطراد حالات الغيبوبة والغشيان عنده . كان ينن ويهذي كثيراً . وفي لحظات الفرج والسكينة كنت تراه يصبر ويواسي بلطف - وكأنه مذنّب - أهله وذويه الذين جلسوا بجنبه عاجزين لا حول لهم ، وقد اغرورقت عيونهم بالدموع .

- لم تستطع ان تحترس . أصابتك الصحوّة ، ها ! - أخذ كوزما دانييلوفيتش ينوح عاذلاً ، بعد أن بقي وحده مع اوستين . في الحقيقة ، لمست خالياً ، انا الآخر ، من ذنب هنا بطبيعة الحال ... لكن يخيّل الي أنني كنت أتوخى الإرشاد والصواب : كان من الأفضل أن تلزم الصمت الى أن يحين موعد اجتماع اللجنة الطبية . أظنه بعد شهر او شهرين . أهو من طويل يا ترى ؟ .. ألم يكن الامر كذلك ؟ .. وهكذا كان بإمكانك ان تخبر الاطباء عندئذ بكل شيء . والى ان تجتمع اللجنة الطبية كان القانون نفسه الى جانبك أيضاً ، فلديك شهادة طبية بأصابتك وعوقك .

في حين أنك أذيت نفسك ، عاقبتها واقتصصت منها سلفاً ، قبل
الآوان ... لم يلقوا عليك القبض ، إلا أنك بمثابة لص ، أليس كذلك ؟
- القانون في داخل ذاتي ، يا ابتاه ، إنه يـ ... ينطلق مني ... تـ ...
تجاوزت ضمـ ... ضميري فكان أن تـ ... تجاوزت القانون أيضاً .
- أجل ، قد تكون مصيباً ، يا بني ، ولكن ما الفائدة الآن ؟ ...
- كل شيء على ما يرام ، يا أبيـ .. جهد أوستين أن يتصنع ابتسامةـ ..
الشاحنة قـ ... قد انتشلناها ... وأنا الآن مـ ... مستعد لما أشاء : ان
أعني ، وان أقاتل أيضاً ...
- أي نعم . وهل تعرف حقاً لأي شيء تصلح أنت الآن ؟ .. واطبق
كوزما دانييلوفيتش رموشه الندية .

- عندي ، يا أبي ، المهم هو ... أن الحق بالناس ، أنضم إلى ركبهم ،
أجل . ربما كان في مقدور بعضهم أن يصبر على مثل هذه الحياة ، أن
يجدها ملائمة له ... أما أنا فحتى لو ذبحوني ! ... ان الخنوص
المسروق يظل ابدأ يقبع ، ينخر مولوداً في الأذان . نعم ، أنك تستطيع أن
تكتم شيئاً ما عـ ... عن العالم ولكن عـ ... عن ذاتك كيف ؟! ... انه لأمر
مرهق لا يطاق ، كالأشغال الشاقة تماماً ، أن تهلك نفسك بنفسك ...
أه ، ما أشد الحر ... ولكن ، كـ ... كفت عن البكاء ، يا أبتني . أنا
بخير ، وحتى لو مـ ... مت قلاباً سـ ... سوى أن رأسي بـ ... يبدأ يـ ...
يتصدع ... ربما ... فات الآوان ، لن تستطيع شيئاً ... النار في
كل مكان . أعطني ماء ! ... اخمدها ، يا أبي . هناك ، أراهم ، يحملون ،
ها هي ذي ... مذكرة الاستدعاء . فلقد كتبت اليكم ، ايها الرفيق
الرائد ، التثبت ... أنا سالم معافي ، ايها الرفيق رئيس اللجنة

العسكرية ... هاهم ، الاوغاد ... من جهة اليسار ، انظر ، انهم يطوقوننا من اليسار .. ميرغالييف ! جهاز التسديد اثنا عشر ، بخارقة الدروع ... النار ! بسرعة ... الماء ... النار ...

استمر اوستين غارقاً اكثر فاكثُر في هذيانه ... كان يهمس همساً مشتتاً بكلام متقطع غير مترابط ، يسب ويندد من وقت لآخر ، بل وينشج احياناً ... ثم هدا فجأة هدوءاً مخيفاً . فانحنى كوزما دانيلوفيتش على وجهه المنقفع الرخو الشاحب شحوب الموتى والخالي من ايثما قطرة دم ، محاولاً ان يلتقط انفاس ولده الخافتة الساكنة .

- ماذا ؟! القت فروسيا على الغرفة نظرة استفهام مشحونة بالقزع ... تحرك كوزما دانيلوفيتش بضع خطوات عن سرير ولده ثم تكلم بصوت خافت وهو ينظر الى وجه كئنته المضطرب المرعوب :
- انه يتغلى كالموقد حرارة ، لكن ليس ثمة من عرق . يالها من كارثة : الحمى كلها في داخل جسمه . انها تشتد دونما شفقة . اذا بقيت هكذا فيمكن ان تخنقه .

فرجت فروسيا ما بين شففتيها الرقيقتين الضامرتين ، اللتين تقلصتا واجماً مفجعاً ، ارادت ان تقول لحميها شيئاً ما ، الا انها لم تستطع سوى ان ترسل انيناً ثقيلاً مؤلماً ... ثم تسمرت في قنوط كليلى ، محملقة في اوستين بعينين شاردتين غائبتين ...

لقد تغيرت فروسيا تماماً خلال هذه الايام الاربعة من مرض زوجها : تقدمت بها السن وبدت كما لو انها اصببت بالصمم ، كانت تجيب من يناديها ببطء شديد ، متوجسة ، خائفة اية تغيرات منتظرة ، مقبلة في النحياء . كانت هذه التغيرات على درجة من الشدة المفجعة المصعقة

بحيث انها ثبتت عزيمتها بالمرءة اياستها كل اليأس وكبست انفاسها :
فبدموع الفرح اندفعت نحو زوجها وهي تسمع صوته من جديد ... بيد
انها سرعان ما اضطرت ، بعد مضي يوم واحد فقط ، الى ان تمسح دموع
الحزن والاسى . بدا وكأن اوستين لم يبدأ النطق الا لكي يسكت في
الحال ، الا لكي يتوارى الى الابد عن الانظار . لم يتعلق لكنه كان
صحيحاً معافى . وحين نطق اذا به وجهاً لوجه امام الموت .

ارجوك سيد ... سامحيني ، يا فروسيا ... اجثو على ركبتى امامك
وامام الناس ... حافظي على الاطفال !... كان اوستين يهمس لزوجته في
لحظات وعي الذاكرة . وكانت فروسيا تندفع نحوه ، تحتضن براحتيها
وجهه المنتفخ الساخن ، وكأنها تحاول ان تحفظ ، في ان معاً ، بهذا
السرعي الذي انبعث فيه للحظة ، وبالصوت الحبيب الموشوش في
اذنيها ...

أخذت عجائز القرية يخفقن الوطاء ، يحترسن بعض الاحتراس في حركاتهن وخطواتهن عند منزل آل ديدوشيف ، بل ويتوقفن وكما أنهن يتشممن ويستطلعن شيئاً ما . وأحس كوزما دانييلوفيتش في هذا كله أمارت سوء ، فألاً منذراً بالشؤم ...

- إيه ، ما بالكن تحوّلن حول الدار وتدورن برؤوسكن كالغريبان ؟! ما الذي شمته أنوفكن ، أيتها العقائق الهرمة ؟ طاح بهن صراحاً وقد استبد به الغضب وأخذ منه الكدر والضجر ... على الرغم من أنه أدرك خطئه وقظافته تجاه التسوة العجائز . وأقر بالعجز والقضاء المحتوم أمام المصيبة التي اقتحمت الدار لا مفر منه ولا مرد له .

- ما كان ينبغي لك أن تلجأ الى الصراخ . يا دانييليتش . إنما جننا بدافع العطف والحنان ...

- سيئة هي حال ابنك أوستي ... حتى الموظفة الصحية ، أسمعني ، رفضت أن ... هيه ، ولكن ماذا بيدنا الآن ؟ كل امرئ وما كتب الله له ... ولا مفر من الموت ...!

- لا تخش الموت ، أيها الانسان . بل الذنوب والآثام هي التي يجب أن تخشها . وأنه لا مفر من أن يرحل المرء حاملاً معه أثامه ... وما دام أوستي حياً ...

- أجل . ما دام حياً فلا تتأخر يا دانييليتش ، في طلب الجدة

أوفسيانيخا . وعلى الرغم من انها ليست قساً لكنها تستطيع ان تقوم
بالقاء موعظة الغفران ... ولربما يريد أوستين أن يقول كلماته الأخيرة ،
ان يعترف قبل مغادرته الحياة الدنيا ، الموت وعد وفرض من الله ،
والاعتراف حق وفرض منه ايضاً . وليس عيباً ان قد اعاد الله اليه
النطق والسمع ثانية ...

وسرعان ما ظهرت الجدة أوفسيانيخا التي لاحت وهي تعود أوستين
بكسانها القاتم وشالها الاسود المكون من قطعة نسيج مثلثة الشكل
تتدلى فوق جبينها الاصفر ، لاحت أشبه ما تكون بعقعة هرمة
عجفاء ... فخطر اليها كل من كوزما دانيلوفيتش وفروسيا بفزع ونفور ،
إلا انهما لم يفردا لها مكاناً خاصاً في الدار ، بل قاداها بصمت الى الغرفة
مباشرة وتركاهما على انفراد مع أوستين .

بعد قليل ظهر كل من فاسينين والحداد بانكرات . كانا يعلمان ان
أوستين متوكل الصحة ، لكنهما لم يكونا يدركان انه على مثل هذه الحال
من السوء والاذى . دخلا الغرفة وكانهما لم يصدقوا حديث فروسيا
الدامع الباكي ، فتوقفا مصطدمين بتمتمات أوفسيانيخا المخيفة
وعغمفاتها المشؤومة ...

- كل ما يصنعه بنا هو جزاء لما اقترفناه نحن من اثم ... ايها الموت ،
مبهج حكمك للانسان الفقير اليك والضعيف الرازح تحت اعباء
طاقاته ...

- هو نفسه يصدر على نفسه حكماً ليس أخف وطأة من قضاء
الرب ! ... تكلم كوزما دانيلوفيتش ، الذي دخل الغرفة مع الرجلين ،
تكلم ناشجاً من حلال انفه الاحمر ، وكأنه يتدارك مصوباً بوجل كلام
أوفسيانيخا .

تبادل فاسينين وبانكرات النظرات فيما بينهما كما لو كان كل منهما

يطلب المشورة من لدن صاحبه .

- أوستين !.. صاح فاسينين فجأة ، منادياً بصوت عال ثم خطا نحو السرير . هل تسمعني ؟

كان رد أوستين قد تمثل في أنفاس ساخنة متكررة ، ليس إلا . وقد تشنح قليلاً وجهه المتورم الثقيل فبدأ وكأنه يحمل ابتسامة .

- هذا جيد إذن . ما دمت تتنفس يعني أنك على قيد الحياة . تكلم فاسينين محبذاً مستحسنأ ... دفع ، مزاحماً بكتفه أوفسيانيخا واحتل المكان الرئيسي قرب السرير . لقد عجلت ، أيتها الجدة ، في تدبير أمر تشييعه المبكر جداً الى العالم الآخر . انتظري قليلاً !

- مثل هذا الامر حصل أيضاً لزوجتي دوسيا في أيام شبابها.. تحدث بانكرات وهو يجس لامساً رجلي أوستين.. في اليوم الثالث لما بعد وضعها مولودها الاول ، ذهبت تغسل البياضات في النهر . ومن شدة الحر استحمّت هي نفسها أيضاً ، فتورم جسمها ولزمت الفراش فاقدة الوعي كأنها قرمة شجرة ... فاعتقدت ان قد حلت نهاية يقدوكيا ، لأنها الت الى حال من السوء بحيث لم يبق عندئذ بين الحياة والموت حتى قدر مسافة لاجتياز برغوة . وبينما الامر كذلك إذ أدركني شيخ وقور ولقنتني ما يجب صنعه . فهل تعلمون كيف تمكنت من انقاذ حياة يقدوكيا ؟ ... قطع بانكرات حديثه ، نادى فروسيا وسألها : الا ترينني حمامكم !

بعد مضي بضع دقائق عاد بانكرات قائلاً :

الحمام على ما يرام ، الحطب جاهز . هل تسمح لي يا دانييليتش بأن أحرب علاجي الطبي ؟

- جرب ، وهل بقي أمامنا خيار لنقرر ما الأحسن وما الاردا ؟ ها هن العجائز يقرآن على أوستين قداس الموتى . يموت ابني فتصل ، أنا الآخر ، نهايتي أيضاً !

طرح بانكرات معطف فروالضأن عن كاهله وبأشرف في اللحظة ذاتها عمله . حمل ، بمساعدة فروسيا ، الى الحمام حطباً وماء ، أوقد النار في الوجاق . بقيت الشعلة تنز تحت المراجل دونما انقطاع نحو ساعتين دراكاً . وبين الفينة والفينة كانت حصبات الفحم تفرقع مستوعبة ومدخرة الجمر الجاف . وكان بانكرات يخرج بين وقت وآخر من الحمام الى صحن الدار لكي يتجنب التسسم بغاز الفحم ، يخرج وقد تصبب وجهه عرقاً ودمعت عيناه من أثر الدخان ، فيكسر الحطب ويعد المقشآت .

- ما كان يجب أن تقف حيث تيار الهواء ، ياسيميونيتش . أخشى أن تصاب بالبرد - أبدت فروسيا قلقها على العجوز بانكرات .
- كل شيء جاهز ، فلننقل أوستين الى هنا ، أمر بانكرات . من المرجح أن سنتمكن ثلاثتنا معاً من عمله .

دشروا أوستين بملحفة دافئة ، جاءوا به الى المنزاع التابع للحمام . شلحوا عنه ملابسه ووضعوه بعد جهد جهيد ، فوق منصة البخار الخشبية في حجرة الحمام الشديدة الحرارة .

انه لبخار ما بعده من بخار ، تتصدع منه العيون !- نكص كوزما دانيلوفيتش متراجعاً الى غرفة المنزاع .

- هم بخيرة ، أما البخار فسوف يأتي فيما بعد .
تكلت بانكرات ثم أخذ يخنق قميصه وسرواله .
اشامت فروسيا بوجهها وغادرت الحمام .

- ما أشبه الحر هنا !... كانت في تنور من صفيح !-
أخشى أن يختنق هناك . جعل كوزما دانيلوفيتش يقلق على والده .

لاح له بانكرات الاعجف النحيف ، ذو الجسد الضامر ، والمحدودب
الظهر من اثر الشيخوخة ، لاح له واهناً ضئيلاً وهشاً ضعيفاً للقيام
بمثل ذلك العمل الشاق المرهق الذي كان ينتظره في حجرة الحمام البالغة
الحرارة ، في الوطيس الذي يذث أبخرة نارية ملتهبة تلفح لفحاً .
لبس بانكرات قبعته وقفاريه ، تناول إحدى المقشرات ، خطأ او داخل
حجرة الحمام وأوصد من خلفه الباب . وسمع كرزما دانيلوفيتش كيف
زاد بانكرات كمية البخار ، راشأ الماء على الحصباء المتوهجات . ومن
ثم اخذت تبليغ السمع ضربات سريعة متواترة ترسلها المقشاة ،
مصحوبة بتأوهات وأنان وأهات وأخاخ ... كأنما هناك معركة قد
نشبت وراء الباب الموصود . وبعد مضي ما يقرب من خمس دقائق خرج
بانكرات الى المنزح ، غسل رأسه غسلاً خفيفاً بالماء البارد في البرميل
وهوى على المصطبة .

ها ١٩ :سأل كرزما دانيلوفيتش بتوتر وجهه بعد ان تنفس العجز
بانكرات الصعداء ، بالعاريقه قليلاً .
بعد بانكرات بصمت وذ هول ما بين يديه . تناول مقشاة جديدة
وانصرف الى غرفة الاستحمام . كان أوستين ممدداً بلا حراك . وقد
ظهر انه لا البخار الساخن الجاف ولا ضربات المقشاة اللافحة القاسية
اثر في او جعلته يشعر بشيء . كان جسده اصم ساكناً تجاه جميع
مسامي بانكرات وجهوده المضنية .

في صباح اليوم التالي اوقد بانكرات الحمام من جديد . حملوا
أوستين ملفوفاً بالحلقة الى غرفة الاستحمام ثانية ، وكان مجرداً من
ملابسه في هذه المرة ايضاً . وجعل بانكرات ينزل ، دونما رافة بنفسه

الواهمة الواهية ولا بقلبه الهرم المقوض الملقوم بالعديد من الاسقام والعلل ، ينزل على جسد اوستين سيلاً من ضربات المقشة المعمولة من اعواد شجرة البتولا ، ينعم جلده بضراوة وقسوة ، ويدعك بيديه ، يدلك ، يمسد ، يضغط بشدة اعضاء جسمه كلها ... لقد استوثق من انه اذا بقي جسد اوستين محافظاً على مثل هذه الحمرة والحرارة فمن الاستحيل ان تخرج منه الحياة ، ان يفتر ، ان يموت . واستمر يعمل . يسعى جامها بقوة اعصاب تفوق الحد وبطاقة ذاتية قليلة ، حتى كاد يختنق من شدة الحرارة الجهنمية وضيق النفس .

بعد عملية التبخير الاولى بدا جسم اوستين المتورم ، المنتفخ كالمطاط ، بدا وكأنه قد ثقب في كل جزء من اجزائه وفي كل مكان منه بألف الابر ، وقد تجسس منه العرق . أخذ اوستين ينن ويرسل صيحات خافتة ، وبعد التبخيرة الثانية فتح عينيه .

ها ، كيف الحال ، يا اخي ؟ نظر بانكرات ، مبتهجا مسروراً ، في وجه صاحبه .

الجو حار .. لكن جسمي لا يحس الا قليلاً . كما لو كنت تـ ... تجلد خشبة ازفر اوستين .

- التسخين جيد جداً ، حتى اسناني اخذت تؤلمني من شدة الحمي ، انفس ثمة ما تتنفسه هنا . انظر كيف صار جسمك ينضج عرقاً ، انه ليس خيراً يا اوستين . اما الان فاسمح لي بان اديرك على ظهرك . اجل هكذا ، هكذا ...

تجركت سريعاً ، بفعل ضربات المقشة .. موجات شديدة مرصوفة من الرمضاء . جعل كل من بانكرات و اوستين يلتهم بقمه ، متشيطاً

ملسوعاً ، كميات من الهواء الحامي ، نشجا معاً ، تأوها ، أنا ،
زحرا ... وكأنهما يتعاركان ، فيما بينهما ، عراكاً لا هوادة فيه ولا
رحمة ...

- يقشع ريدني ... وخزات خـ ... خفيفة اشبه ما تكون بدغدغات ،
احس بها تسري في ظهري ... - اخذ اوستين يغمغم .
- هكذا بالضبط !.. هوذا المطلوب تماماً !. انه الاحساس غدا يعود
ليك !- طفق بانكرات يرسل صيحات المسرة والبهجة .

في اليوم الثالث اوقد الحمام مرة اخرى وبخر اوستين ثلاثاً ،
مستهلكاً البقية الباقية من قواه . وهنا حدث امر مدهش عجيب: تغشّى
جسم اوستين كله بطفح كثيف ضارب الى الحمرة ، كأنما الصقت عليه
بذور الحنطة الناعمة التي تحضر منها العصيدة .

وهذا هو المطلوب ، - راح بانكرات يردد مكرراً - باطمئنان واعياء -
كلماته وكأنه يلخص مجمل عمله الايقاعي المهم الذي اجراه في حجرة
الاستحمام - انك ستنتعش بلاريب . ها هي ذي الاورام قد هبطت الى
النصف سوف تشفى ...

بعد التبخيرة الثالثة خرج اوستين من حجرة الحمام ماشياً على
قدميه . لكن بانكرات رقد ولم يقم من رقدته الى الابد .

واعتقد الناس ان الاسقام والعلل التي ما فتئت تلح منذ زمن طويل
على الرجل العجوز هي التي قهرته واستلت منه الحياة في نهاية المطاف .
اللهم الا اوستين الذي كان هو وحده يعرف السبب الحقيقي الذي
عجل - بهذا الشكل المبالغ ، في اختصار اجل بانكرات الذي رحل
تاركاً اوستين هكذا حتى النهاية دون ان يصمم او يجزو على ان يسر

اليه بمكنون روحه المعذبة . وها أن الوقت قد امسى الآن متأخراً
للغاية ..

عاد أوستين الى الورشة بعد مضي ما يقرب من ثلاثة اسابيع على الحادث الذي وقع فوق جليد البركة المائية . تناول المطرقة بيدين واهيتين متغيرتين كل التغير ومغسولتين الى درجة من البياض لا تقبل التصديق ، تناول المطرقة ووقف طويلاً كالعمود امام السندان ، متذكراً ... كان متفجعاً تفجعاً عميقاً مشبعاً بالتدم والتأنيب الذاتي على صديقه الحداد العجوز الطيب الذي بداله وكأن قد دفعه هو ، بيديه ، الى القبر دفعاً . واغتم ايضاً كوز ماد انطوفيتش ، صار ينظر الى ابنه كمن اقتترف ذنباً ، متجنباً الحديث معه . لكنه حين رأى أوستين متاهباً - بعد ان استرد صحته - للذهاب الى الورشة اشار عليه بوجل قائلاً :

حبذا لو انتظرت قليلاً لكي تستجمع قواك : ان الريح زعزع ... الخشى ان تصيبك بأذى . يجب ان تكون الآن متأنياً جداً وهادئاً حذراً في حياتك العملية ، لا تجهد نفسك كثيراً في العمل عوضاً عن ثلاثة اشخاص في ان واحد : فانت مازلت واهناً عليلأ ، يا بني ، على الرغم من انك قد تنافست ونطقت امام الناس ... ثم انه ما كان حتى في طاقة الشيطان نفسه ان يستمتع عن البكاء والصراخ وهو يغوص في مثل هذه التلثة الجليدية القاسية .

وما شأن الشجرة الجليدية هنا ؟ انني قبل هذا ... أجل ، في زمن سابق

ك... كتبت الى مركز المنطقة عن نفسي . وك .. كفك شفقة علي ،
يا ابي ... لقد اشفتحت حتى الشبع !.. تكلم اوستين وقد ظهرت في صوته
صرامة متنامية ، وانكشفت على وجهه الشاحب المكهر ، فجأة ، مقلتان
تلتهبان - بشدة - شراً أزدق وكأنهما تغليان من الداخل غيظاً .
- كيف ؟ وما الذي كتبته ؟ - سأل كوزما دانيلوفيتش بلهجة لينة وهو
يغض الطرف عن وجه ابنه .

خطا اوستين نحو الزاوية ، حيث اكورديونه المعلق فوق المنصة
الخشبية ، استل من تحت سيره الجلدي قصاصات من ورق اصفر اللون
دسها في كف والده :

- انظر (... هي ذي الوريقات التي بقيت .. اتها .. مسودة الرسالة التي
ارسلتها ...

- وضع كوزما دانيلوفيتش نظاراته على أنفه ، قلب قصاصات الورق
التي اخذت تحدث في يديه خشخشة وحفيفاً ... ثم اكب على قراءة تلك
الوريقة التي كانت تحمل لطخات وتصحيحات أقل من سواها . أنشأ
يقرأ ، حانياً ظهره اكثر فاكثرو قد زاد وجهه امتقاعاً وشحوباً ... ثم تهاوى
على الكرسي وهو ينظر بارتباك وذهول الى ولده .

أنا ... الى الورشة ... قال اوستين ذلك وجعل يخطو في لهفة وجزع نحو
غلمة الدار .

عندما صفت الباب شعر كوزما دانيلوفيتش بدوار خفيف في رأسه
ونضربات قلبه المروية داخل صدره الواهي . استند بيده على حافة
الكرسي ثم مديده ثانية - على الرغم من ارادته - نحو الورقة واخذ يقرأ بترو
وتعجب ، متفحصاً ، متأملاً في تودة ، أسطر الرسالة القصيره التي بدت

مرهفة مستنونة ومستقيمة واضحة مثل سكاكين الآلة الحاصدة :
« الرفيق رئيس لجنة المنطقة العسكرية .

أنا ، ديدوشيف أوستين كوزميتش ، أمر مدفع في اللواء الثالث لمدفعية الميدان المضادة للدبابات ، أصبت أثناء المعركة التي دارت في ١٠ تموز عام ١٩٤٣ ، على مقربة من قرية أولخوفاتكا الواقعة في ضواحي مدينة كورسك ، أصبت بجرح في رأسي وكدمت بوثاء قوية سببت لي صمماً وبكماً تامين . عولجت في المستشفيات العسكرية ، لكن بلا جدوى . منذ وقت غير بعيد ، زالت عني الوثاء تلقائياً . أنا الآن سالم معافى واستطيع ان اعود ثانية الى خطوط الجبهة . وهذا هو الامر الذي وددت ان اطلعكم عليه . ان موعد حضوري للممثل امام اللجنة الطبية هو في شهر شباط . غير ان هذه المسألة لم تعد لها ، في نظري ، اية أهمية . ارجو مساعدتكم في ترحيلي الى المواقع الامامية ... »

من فوق الخناصة الخشبية ، هبط الصغير فاسيليك ، عاري القدمين ، في قميص قصير بلا سروال . كان مقرور الجسم ، حدّ القشعريرة ، من البرد الصباحي الشديد ، في الدار التي لم تكن مدفأة حتى ذلك حين . استخفى ، صامتاً وبحركة سريعة ، بين ركبتَي جده . تلقف كوزما دانيلوفيتش حفيده الناعس ثم أخذ ، وهو ينزع نظاراته ، يملّس بحنان وشود ناصيته المشبعة الشقراء ، مطمئناً بدفء القربة والنسب ، بالدفء الناعم الحنون ، هذا المخلوق الادمي الحبيب القريب ، الصغير ...

« لابأس ، يا فاسيليك ... مادام الامر كذلك فيمكن اذن ... ان الوند قد اختار بارادته وتصرّفه طبقاً لمشيئته ... ومع ان ذلك يعرّ على والدي ويحرّ في

نفسه . لكننا لو تأملنا في الامر لوجدنا ان هذا الذي فيه هو مني أيضاً ...
يعني ان الناء ، الديدوشيف ، بوجه عام ، قد تغلبوا على كل شيء ، تجاوزوا
في عنادهم جميع ذوي العناد ، بلغوا الغاية والمراد ، اليس كذلك ؟
في اعتزاز مشوب بالمرارة ، راح كوزما د انيلوفيتش يفكر بصوت
مسموع ثم أخذ ، وهو يضم بقوة حفيده الصغير الى صدره الحنون ، أخذ
يجفف بقبضته المرتعشة عينيه المغرورتين بالدموع التي حجبت عنهما
الرؤية ...

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

عن المتوجم / حسن نجم البيهقي

- ★ ولد في محافظة ديالى سنة ١٩٢٠ ونشأ في بغداد .
- ★ دخل المدرسة الابتدائية عام ١٩٤١ وانهى الاعدادية عام ١٩٥١ .
- ★ ليسانس شرف في الاداب من كلية التربية / بغداد ١٩٥٥ .
- ★ دكتوراه فلسفة في اللغة والادب / جامعة موسكو ١٩٦٥ .

الوظائف التي شغلها منذ عام ١٩٥٥ :

- ١ - مدرس على الملأ الثانوي - ١٩٥٥ - نهاية ١٩٥٩ .
- ٢ - محاضر ثم مدرس في كلية اللغات الشرقية بجامعة موسكو ١٩٦٢ - ١٩٦٥ .
- ٣ - مدرس فاستاذ مساعد في كلية الاداب بجامعة البصرة ١٩٦٦ - ١٩٨١ .

ابرز اثاره المنشورة باللغتين العربية والروسية :

- ١ - من شفاء الضياء - مجموعة شعرية - بغداد ١٩٥٦ .
- ٢ - جنود الاحتلال - مجموعة شعرية - بغداد ١٩٥٩ .
- ٣ - الشعر العراقي الحديث في معركة النضال ضد الحكم الملكي (باللغة

- (الروسية) - موسكو ١٩٦٥ .
- ٤ - الطابع المعادي للاستعمار في الشعر العراقي الحديث (باللغة الروسية) - موسكو ١٩٦٥ .
- ٥ - انتكاسة الشعر العراقي في حروب البلقان - البصرة ١٩٦٨ .
- ٦ - مواقف مناوئة للحرب في الشعر الجاهلي - البصرة ١٩٦٩ .
- ٧ - مع قصيدة بصرية - دراسة وتحقيق - البصرة ١٩٧٧ و ١٩٨٠ -
- ٨ - قصة مجهولة من التراث الشعبي العربي في القرون الوسطى - ترجمة عن الروسية مع التعليق - البصرة ١٩٧٩ .
- ٩ - أولئك الذين تحت - رواية مترجمة عن اللغة الروسية - بغداد / دار الشؤون الثقافية ١٩٨٦ .
- ١٠ - الأدب الفلبيني - كتاب مترجم عن اللغة الروسية - كتاب «الثقافة الاجنبية» - بغداد ١٩٨٧ .
- ١١ - الأدب الآسامي / الهندي - كتاب مترجم عن اللغة الروسية - كتاب «الثقافة الاجنبية» - بغداد ١٩٨٨ .
- ١٢ - عشرات القصائد الشعرية الموضوعية والمترجمة عن اللغتين الانكليزية والروسية ، المنشورة في العديد من الصحف والدوريات العراقية والعربية منذ الخمسينيات وحتى الوقت الحاضر .
- ١٣ - جملة من البحوث والدراسات والقصص والمسرحيات المترجمة عن اللغة الروسية ، نشرت في العديد من المجلات العراقية .
- ١٤ - نشرت بعض اثاره الشعرية مترجمة الى اللغات : الروسية ، الأوكرانية ، الجيكية ، الصينية ، الكردية ، العبرية وغيرها .

دار المأمون للترجمة والنشر

تأسست في منتصف عام ١٩٨٠ لتتولى مسؤولية الترجمة ونشر المطبوعات الدورية الناطقة باللغات الأجنبية والمطبوعات المترجمة من وإلى اللغة العربية وبما يؤمن الاسهام الفعال في عملية التواصل والتفاعل الحضاريين بين العراق والعالم .

تصدر دار المأمون الصحف التالية :-

- ١ - جريدة بغداد او بزفر - يومية سياسية ناطقة باللغة الانكليزية .
- ٢ - مجلة بغداد - شهرية سياسية عامة ناطقة باللغة الفرنسية .
- ٣ - مجلة كلكامش - مجلة الثقافة العراقية الحديثة - فصلية ثقافية ناطقة باللغة الانكليزية .

وتترجم الدار كتباً من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية واخرى من اللغات العربية الى اللغات الاجنبية وتصدرها .

كما تقدم خدمات الترجمة الفورية والتحريرية للمؤتمرات والندوات الدولية داخل العراق وخارجه .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

١٠ صدر عن دار المأمون الكتب الآتية المترجمة الى العربية - حسب تاريخ نشرها

العنوان	السنة	تأليف	ترجمة
١ - دليل مترجم المؤتمرات	١٩٨٦	جان هيربرت	سمير عبدالرحيم الجلي
٢ - رباعية الحرب (قصص الادب الانكليزي)	١٩٨٥	جورج ماكث	ياسين طه حافظ
٣ - فن الرواية (دراسة نقدية)	١٩٨٦	كولن ولسن	محمد درويش
٤ - العاصفة (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٥ - كلاب الصيد الابيض ذو الاذن السوداء (رواية من الادب الروسي)	١٩٨٦	جافريل تروبولسكي	عبد الواحد محمد
٦ - مكث (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٧ - الملك لير (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٨ - بين الفن والعلم (دراسة نقدية)	١٩٨٦	دولف رايسر	د. سلمان الواسطي
٩ - بلاد الثلوج (رواية من الادب الياباني)	١٩٨٦	يوسوناري كاواياتا	لطيفة الدليمي
١٠ - مدن لا مربية (رواية من الادب الايطالي)	١٩٨٦	ايتالو كالفيينو	ياسين طه حافظ
١١ - السيدة دالواي (رواية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	فرجينيا وولف	عطا عبدالوهاب
١٢ - حور (رواية من الادب الفرنسي)	١٩٨٦	الان روب غرييه	د. سعيد علوش وخديجة بناني

- ١٢ - عطيل (مسرحية من الادب ١٩٨٦ وليم شكسبير جبرا ابراهيم جبرا
(الانكليزي)
- ١٤ - هاملت (مسرحية من الادب ١٩٨٦ وليم شكسبير جبرا ابراهيم جبرا
(الانكليزي)
- ١٥ - شكسبير والانسان المسترحد ١٩٨٧ جانيت ديلون جبرا ابراهيم جبرا
(دراسة نقدية)
- ١٦ - الحداثة (الجزء الاول) (دراسة ١٩٨٧ مالكوم برادبري مؤيد حسن فوزي
نقدية) وجيستن ماكفرلان
- ١٧ - صناعة المسرحية (دراسة نقدية) ١٩٨٧ ستيفارت عبد الله الدباغ
غريفتش
- ١٨ - القطار السريع (رواية من الادب ١٩٨٧ ريمكارد كوين اقبال ايوب
(الالمانى)
- ١٩ - الازهار البرية (مجموعة قصص ١٩٨٧ ارسكين كالدويل علي الحلبي
قصيرة من الادب الامريكى)
- ٢٠ - حبة قمح (رواية من الادب الافريقى) ١٩٨٧ نفوغى واثيرونفو سلمان حسن ابراهيم
د. سامي حسين
- ٢١ - قبر البصل (قصص قصيرة من ١٩٨٧ الادب الالمانى)
- ٢٢ - معجم التعابير الاجنبية في اللغة ١٩٨٧ ب. افثيان سمير عبد الرحيم
الجلبي
- ٢٣ - مصطلحات المؤتمرات ١٩٨٧ جان هيربرت سمير عبد الرحيم
الجلبي
- ٢٤ - الثعلب (رواية من الادب الانكليزي) ١٩٨٧ د. هـ فورنس نعيم عباس مظفر
- ٢٥ - مذكرات مالكولم عالم الآثار وزوج ١٩٨٧ ماكس مالوان سمير عبد الرحيم
الجلبي
- ٢٦ - الرجل العاشر (رواية من الادب ١٩٨٧ عزيز غرين هادي عبد الله الطائى
(الانكليزي)
- ٢٧ - كائنات (رواية من الادب الاسباني) ١٩٨٧ ارنستو ساباتو مروان ابراهيم صديق

٢٨ - حوار الرؤية (دراسة فنية)	١٩٨٧	نathan نوبلر	فخري خليل
٢٩ - ملحمة رانايانا (من الأدب الهندي)	١٩٨٧	رك - نارايان	د. جوزيف نادر بولس
٣٠ - جويس (دراسة نقدية)	١٩٨٧	جون كروس	عبد الوهاب الوكيل
٣١ - الورقة الخضراء (مختارات شعرية من الأدب السبعيني المعاصر)	١٩٨٧	ايغور بيرماكوف	د. عباس خلف
٣٢ - الخطوات الضائعة (رواية من ادب امريكا اللاتينية)	١٩٨٧	اليخو كارينتر	سالم شمعون
٣٣ - الانطباعية (دراسة فنية)	١٩٨٨	جان ليماري	فخري خليل
٣٤ - ايلول بلا مطر (قصص قصيرة من الادب الانكليزي والامريكي)	١٩٨٨		جبرا ابراهيم جبرا
٣٥ - الانثى - الانثى	١٩٨٨	انازيجر	د. سامي حسين
٣٦ - بحر سارناسو الواسع	١٩٨٨	جين ريز	فلاح رميم
٣٧ - المعنى الادبي	١٩٨٨	وليم راي	د. يوتيل يوسف
٣٨ - الاوهام البصرية	١٩٨٨	نيكولاس ويد	عزير
٣٩ - الحل - الر	١٩٨٨	موريس يونس	مي مظفر
٤٠ - طريق فلاندر	١٩٨٨	كلود سيمون	رعد اسكندر
٤١ - فن الشرق الأدنى القديم	١٩٨٨	سميث لويد	باسيل قوزي
٤٢ - موسوعة المصطلح النقدي	١٩٨٨	د. سي. ميويك	محمد درويش
٤٣ - جاك بريغر	١٩٨٨	(قصائد مختارة)	د. عبد الواحد لؤلؤة
٤٤ - مئة عام من المرح الحديث	١٩٨٨	جي. إي مولر	سامي مهدي
٤٥ - كوكورو	١٩٨٨	فرانك انغر	فخري خليل
	١٩٨٨	مسنومي موسكي	عبد الواحد محمد

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

زبد الحديد

يقدم هذا العمل الابداعي ذو المنحى الدرامي الى تيسار في
البناء الواقعي يعتمد على معطيات التحليل النفسي ، ويتناول
الإنسان الذي لا يستطيع العيش (أو) ، يخلف ستار
من الخوف والبهتان والرياء .

وإلى الأثر الفني هذا يرجع في وقائعه الى سني الحرب العالمية
الثانية يحدث عن مصير واحد من مقاتليها غير انه في ج ايضا في
سجل الحوادث الفنية الراهنة . يتناوله في من الضمير
الصارمة سواء في زماننا هذا او في اي زمان آخر .

ومؤلف هذا السفر الروائي ، إيقان أوخانوف ، هو واحد من
كتاب النصة السوفيت الواقعيين المنتمين الى الجيل الاول لما بعد
الحرب ، الذين يعتمدون التحليل النفسي في اعمالهم الروائية
وينطلقون من عالم من فهم جديد للبطل : حيث ينظر الى
الاحداث من وجهة نظر القضايا الاخلاقية لوقتنا الراهن
ويغوصون حتى الامور في تحليلهم الواقعي ، وفي سعيهم نحو
الكشف عن طبيعة الوجود ، ونحو الادراك الفلسفي للواقع ، في
معنيين - الاقلية - الجانب العسكري المحض للاحداث .

السعر: دينار واحد
دار الشؤون للترجمة والنشر

(تصميم الغلاف) ديانا فاروق